جان بول سـارتر

بودلير

ترجمة : جورج طرابيشـي

جان بول سارتر

بودلير

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥

مقدّمة

بقلم ميشيل ليريس

المقصود من هذه الدراسة تحديد دعوة شارل بودلير (الدعوة التي كانت مصيراً اختاره الشاعر تطلّبه وعلى الاقل ارتضاه – لا مجرد قدر تحمّله بشكل سلبي) وبيان ما اذا كان الشعر عربة ناقلة لرسالة والكشف عن أرحب مضمون انساني لهذه الرسالة من خلال الحالة المدروسة ان عمل الفيلسوف هنا يبدو متميزاً عن عمل الناقد تميّزه عن عمل عالم النفس (سواء أكان طبيباً أم لم يكن) وتميزه كذلك عن عالم الاجتماع إن المسألة لن تكون بالنسبة له مسألة وزن الشعر البودليري في ميزان دقيق كالميزان الذي يزان به الذهب (فيصدر على هذا الشعر حكماً تقييمياً او يجتهد في ايجاد مفتاح له) ،

ولا مسألة تحليل لشخص شاعر أزهار الشر ، كما تحلل ظاهرة من ظواهر العالم الفيزيائي انه سيحاول على النقيض من ذلك ، ان يعيش من جديد من الداخل ، لا أن ينظر الى ما هو خــارجي (اي من غير ان تكون الدراسة من الخارج) أن يعيش ما كانته تجربة بودلير تلك التجربة التي تعتبر مثالاً شبه اسطوري عن الشاعر الملعون وسيقبل لهذا الغرض بالاعترافات التي خلفها لنا بذاته عن نفسه على هامش آثاره الادبيــة الفعلية باعتبارها اساساً كبير الاهميــة بالاضافة الى المعطيات التي تتيحها لنا مراسلاته مع اقربائه هذه هي المهمة التي اخذها على عاتقه مؤلف هذه الدراسة ، باعتباره فيلسوفاً في الحدود التي تفرضها طبيعة النص المعاد طبعه اليوم والذي لم يكن يدعي في طبعته الاولى انــه اكثر من مدخل الى مجموعة من المقالات الصميمية وربما كان من المفيد ان نلاحظ ان هذا النص مهدى الى شخص يمكننا ان نلاحظ (مهـما كان رأينا فيه وفي كتاباته) ان مصيره لم يكن حتى الآن إلا مصير انسان يفتخر بأنه مجرم وشاعر في آن واحد ، انسان حبسه المجتمع فعلياً خلف الجدران طوال سنين عدة

---

١ المقصود به جان جينيه الشاعر والكاتب والمجرم الفرنسي المشهور بلواطيته والذي كتب عنه سارتر دراسة تنوف عن خمسمائة صفحة. « المترجم »

وليس ثمة من ادعاء — في هذه الدراسة التي تنتظم اجزاؤها حسب الطريقة التركيبية لدارس ينظر الى موضوعه من أعلى — في الكشف عما هو فريد متميز في النثر والشعر البودليريين كما انـــه ليست هناك اي محاولة محكوم عليها مسبقاً بالفشل لترجع الى قياس مشترك ما تكمن كل قيمته في انه غير قابل للإرجـــاع ان كاتب هذا المدخل يتوقف عن عمد عند العتبة حين يجازف في الصفحات الاخيرة فقط وعلى سبيل إثبات صحة خطواته، لا بدراسة الشعر بـــل ما يسميه — مبيناً بذلك حدوده بصراحة — الواقعة الشعرية البودليرية

كما انه ليست هناك اي محاولة متعجرفة لتفكيك الدواليب العقلية باله الفيزيولوجية — مهبط بمستوى من يتحمـــل تكاليف مثل هذه العملية الى مستوى الشيء الشيء المسكين الذي ننظر اليه لابسين عند الحاجة قفـــاز الرأفة اذا ما كنا حريصين على ان نثبت اننا لسنا معدومي الحساسية تماماً ان فينومينولوجي الوجود والعدم الذي لا يمكن ان تكون المسألة بالنسبة له مسألة ان يكتب، باسلوب متعالم او غنائي فصلاً عن «بودلير» في اطار موجز ادبي يسد حاجة الطلاب، لا يمكن أيضاً ان تكون المسألة بالنسبة له مسألة حشر انفه بدوره وبطريقة موفقـة في الحياة النموذجية لشاعر من الشعراء فيضيف تفسيراً من عندياته الى تفسيرات اخرى قد تكون احياناً من أحط

التفسيرات إن المسألة بالنسبة لسارتر الذي اختار كغاية واقعية لنشاطه ان يبني فلسفة في الحريـــة هي قبل كل شيء استخلاص دلالة ما هو معروف من شخصية بودلير: اعني بذلك اختياره لذاته (بأن يكون هذا لا ذاك) كما يفعل ذلك كل انسان ، من البدء ولحظة بعد لحظة في إطار وضعه المحدد تاريخياً إن بعض الناس لـن يترك الظروف تقهره مهما كانت ، كما ان غيرهم سيعمل مقهوراً من خلال السهولة اما بالنسبة لبودلير فإذا كانت الصورة التي خلفها لنا هي صورة كائن ملعـــون أرهقه سوء الحظ بلا إنصاف فهذا لا يعني انه لم يكن بينه وبين سوء الطالع تواطؤ اننا بعيدون ،بالتالي عن بودلير الضحية الذي يصلح لمؤرخي السير الورعين او المجاملين كما ان ما تقترحه علينا هذه الدراسة ليس حياة قديس ولا وصفاً لحالة مرضية بل هي بالاحرى مغامرة حرية مرسومة بشكل تخميي وبالقـــدر الذي تقتضيه حرية اخرى ليمكنها التعرف اليها انها مغامرة تبدو وكأنها تبحث عن تربيع مستحيل للدائرة (اندمـــاج الكينونة والوجود الذي يظمأ اليه كل شاعر حسب الطريق الخاص به) مغامرة بلا وقائع دامية ، لكننا نستطيع مع ذلك ان نعتبرها من عالم المأساة باعتبار ان محركها الصريح هو ثنائية قطبين لا يمكن التغلب عليها ثنائية هي بالنسبة لنا منبع — لا يمكن ان ينضب — للاضطراب

والتمزق مغامرة يتحد فيها ــ حسب الفاظ خاتمة الكتاب ــ الاختيار الحر الذي يختار به الانسان نفسه اتحاداً مطلقاً مع ما يسمى مصيره » ويبدو معها دور الصدفة غير موجود

وإذا ما استثنينا ما يمكن ان يرفضه البعض فيما يخص الاطروحة ذاتها (التي تعتبر مسلمتها الاولى افكار المؤلف المتعلقة بما يسميه الاختيار الاصلي » أليس هناك شيء من سوء الاستعمال في ذلك الجهد الذي يريد ان يحقق اعادة بناء عقلية ، متخذاً كموضوع له شاعراً كبودلير يصعب كل الصعوبة إدخاله في مخطط نظري واكثر من ذلك أيمكن لمثل هذه الطريقة في الدخول بواسطة الاقتحام (على افتراض ان هذا معقول) الى مثل هذا الوعي أن تكون ، في النهاية طليقة ، اللهم إن لم تلجأ ، بكل بساطة الى انتهاك القدسيات

إن مثل هذه التحفظات تنطلق في الواقع من موقف يؤكد ان جميع الشعراء الكبار يقيمون في سماء خاصة منفردة في ما وراء البشريه فكأنما افلتوا من شرط البشر بمعجزة من المعجزات بدلاً من ان يكونوا مرايا منتخبة تمكّن هذا الشرط من الانعكاس فيها اكثر مما تمكّنه اي مرآة اخرى واذا كان هناك شعر عظيم حقاً فإن من المنطقي دوماً ان نستجوب من يريدون ان يكونوا الناطقين بلسانه وان نحاول التغلغل الى اعمق اعماقهم حتى نتوصل الى تكوين فكرة اوضح عم يحلمون به كبشر.

وحين يكون هذا هو قصدنا ، فهل هناك من وسيلة اخرى للوصول اليه غير دراستهم بلا رهبة او تلعثم ديي (متسلحين بأقصى حد ممكن من حزم المنطق) والتصرف معهم في الوقت نفسه (مهما كانوا غيورين على تفردهم) كما لو انهم اقران لنا نقف منهم موقف الندّ للند

ان مشروع سارتر وهو حتماً جريء للغاية لا يدل مع ذلك على اي قلة احترام حيال عبقرية بودلير وعلى اي تجاهل (بالرغم من كل ما يمكن ان يقال) لما حقق الشعر على يديه من سؤدد واذا ما استثنينا مجالاً معيناً محرماً (هو مجال الشعر كشعر حيث ليس للمذهب العقلاني من عمل) فان علينا ألا ننسى ان هذا لشعر وصل الينا كنتاج لريشة توجهها يد ، وان هذه اليد كان يوجهها بدورها ، من خلال الكتابة هدف معين يستهدفه رجل معين وان الحرية يجب ان تترك كاملة لكل فرد يعرف القراءة ويدفعه ما يقرؤه الى التفكير ليستخدم طاقات عقله وذكائه في توضيح هذا الهدف إن مثل هذه المحاولات – التي تهدف عند التحليل الاخير الى ان يكوّن الانسان لنفسه صورة واضحة عن الهدف الذي ينشده هو بالذات من خلال تفهمه تفهماً افضل وادق للهدف الذي نشدته بعض الكائنات الموهوبة – اقول إن مثل هـــذه المحاولات ليست تطاولات وتعريات مهينة وبغض النظر عن تلك الفئة من الناس التي لا تتعلق إلا بأسرار ضعيفة

واهنة عاجزة عن مقاومة النور الساطع فإن مثل هذه المحاولات لا يمكن لها البتة ان تلطخ وتشوه الشعر الحقيقي الذي يزداد ايقاعه وصداه عمقاً كلما تكونت نظرة جديدة عن الكائن الانساني مهما تكن تقريبية بالضرورة

ان علينا ان نذكر لسارتر — القريب الى ابعد الحدود عن الشعر (كما يعترف بذلك هو نفسه) والذي تصدر عنه احياناً خشونة فريدة من نوعها وهذا اقل ما يمكن ان نقوله تجـــاه ارباب الشعر المتحمسين (ومن امثلة ذلك ادانته الاجمالية للسريالية في دراسته ما هو الادب، اقول إن علينا ان نذكر لسارتر هنا لا كونه قد عرف كيف يبرز للنور بعضاً من الجوانب المجهولة في البودليرية فحسب بل ايضاً كونه قد بيّن انه من الخطأ ألا نرى إلا نحساً في حياة كانت لهـــا بعد كل شيء ، مساهمتها في الاسطورة بأسمى معاني الكلمة حيث ان البطل الاسطوري يبدو لنا ككائن يتلاحم فيه القدر مع ارادته، ككائن يرغم القدر على ان يصنع له تمثاله

اهداء المؤلف

الى جان جينيه

لم يعش الحياة التي كان يستحقها إن حياة بودلير تبدو مثالاً عظيماً لهذا المبدأ المعزّي يقيناً انه ما كان يستحق تلك الأم تلك الضراء الدائمة ولا مجلس العائلة ذاك ولا تلك العشيقة الشحيحة ولا ذلك الزهري وهل هناك إجحاف اشد من الأجحاف الذي نزل به نتيجة لموته المبكر ؟ ومع ذلك واذا ما أعملنا الفكر وجدنا انفسنا امام مولد شك ذلك اذا ما نظرنا الى نفسه فإنه لا يخلو على ما يبدو ، من زلل وتناقضات فقد تبنى هذا الداعر دفعة واحدة ونهائية اخلاقاً هي من اكثر انواع الاخلاق ابتذالاً وتصلباً ولقد كان هذا المرهف يعاشر أبأس العاهرات وحبه للبؤس هو الذي أبقاه بجانب جسد لوشيت النحيف ،وحبه «لليهودية الفظيعة هو اشبه بصورة سابقة لأوانها للحب الذي سيشعر به فيما بعد تجاه جان دوفال إن هذا المتوحد

١ – ممثلة زنجية احبها بودلير (المترجم)

يشعر بخوف رهيب من الوحدة فهـــو لا يخرج ابداً بلا رفيق وهـــو يصبو الى بيت دافىء الى حياة عائلية وهذا الداعية الى بذل الجهد والنشاط هو انسان مصاب بفقدان الارادة عاجز عن المثابرة على عمـــل منتظم لقد وجه نداءات الى السفر وطالب بالتغرب، وحلم ببلدان مجهولة لكنه تردد مدة ستة أشهر قبـــل ان يرحل الى هونفلور »[1] ولقد بدت لـــه الرحلة الوحيدة التي قام بها عذاباً لا نهاية له انه يظهر احتقاراً بل كراهية تجاه الشخصيات الوقورة التي عُهد اليها بالوصاية عليه ومع ذلك لم يسع قط الى التخلص منها ولم يفوّت فرصة لتحمل توبيخاتها الأبوية . ألم يكن يبالي اذن بالوجود الذي عاشه ؟ واذا كان قد استحق حياته واذا كان البشر بخلاف الافكار التي يلقنوننا اياها لا يعيشون إلا الحياة التي يستحقونها ؟ في الحقيقة لا بد لنا من ان ننظر عن قرب أقرب

كان بودلير في السادسة من العمر حين مات والده ، وكان يعيش في كنف عبادة أمه له وكان لا يعرف بعد وهو المفتون المحاط بالرعاية والعناية أن له وجوده كشخص بل كان يشعر بأنه متحد بجسم أمه وقلبها عن طريق نوع من المشاركة البدائية والصوفية كان ضائعاً في دفء حبها المتبادل العذب ولقد كانا

---

١ – مدينة فرنسية صغيرة (المترجم)

اشبه ببيت ، بأسرة بزوجين يعيشان على حب سفاح أنه سيكتب لها فيما بعد «كنتُ دوماً حياً فيك ، وكنتِ لي وحدي كنتِ معبوداً ورفيقاً في آن واحد »

اننا لا نستطيع ان نتجاوزه في جودة التعبير عن الطابع المقدس لذلك الاتحاد فالأم صنم معبود والطفل منذور له بعامل الحب الذي تغدقه عليه كان أبعد مـــا يكون عن الشعور بأنه وجود تائه ، مبهم وطفيلي ، ويحسب نفسه ابناً بالحق الالهي انه دوماً حي فيها وهذا يعني انـــه وجد ملجأه في معبد من المعابد انه ليس كائناً انـــه لا يريد ان يكون الا انبثاقاً للألوهية وفكـــرة صغيرة دائمة من افكار روحها ولقد كان محمياً من كل قلق، ويوجد نفسه بالمطلق ويشعر بأنه مبرر لمجرد انه كان يذوّب نفسه بكاملها في كائن كان يبدو له انه موجود بالضرورة وبالحق

وفي تشرين الثاني ١٨٢٨ تزوجت هذه المرأة التي طالما أحبها للمرة الثانية في حياتها، من جندي ووضعت بودلير في مدرسة داخلية الى هذا الزمن يعود تاريخ «صدعه» المشهور ويستشهد كريبيه بهذا الصدد بملاحظة لها دلالتها، ذكرها بويسون: «كان بودلير روحاً مرهفة، لا متناهية النعومة، اصيلة وحنوناً، وقد أصيب بصدع عند الصدمة الاولى من صدمات الحياة» ان وجوده يشكو من حدث لم يستطع تحمله : زواج أمه للمرة الثانية لقد كان معينه في

هذا الموضوع لا ينضب ، وكان منطقه الرهيب يتلخص دوماً على هذا النحو «حين يكون لامرأة بن مثلي — مثلي هنا مضمرة — فإنها لا تتزوج للمرة الثانية

إن هذه القطيعة المفاجئة والحزن الذي نتج عنها قد ألقيا به دونما تمهيد في الوجود الشخصي لقد كان لتوه مفتوناً بالحياة الوحيدة الاتجاه والدينية التي كان يعيشها باندماجه مع أمه وها هي ذي هذه الحياة قد انسحبت كما ينسحب ماء الجزر تاركة اياه وحيداً يابساً ففقد تبريراته واكتشف من خلال الخجل انه واحد وان وجوده معطى له مقابل لا شيء ويمتزج بحنقه من انه طُرد، شعورٌ بانحطاط عميق. انه سيكتب في «قلبي العاري» مفكراً بذلك الزمن «شعور بالوحدة طفولي ورغماً عن الأسرة وبين ملاء خاصة — شعور بمصير أزلي الوحدة». لقد بات يرى منذ ذاك الحين هذا الانعزال مصيراً وقدراً وهذا لا يعني انه يكتفي بأن يتحمله بشكل سلبي متمنياً ان يكون مؤقتاً بل يلقي بنفسه فيه بشراسة، ويحبس ذاته فيه داموا حكموا عليه به فهو يريد على الاقل ان يكون الحكم اننا نضع اصبعنا هنا على الاختيار الاصلي الذي اختار به بودلير نفسه نضع اصبعنا على ذلك الالتزام المطلق الذي يقرر كل انسان منا بواسطته من خلال وضع خاص ما سيكونه وما هو كان كائن عليه. لقد اراد بودلير، بعد ان هُجر وطُرح،

ان يتبنى لحسابه هذا الانعزال لقد طالب بوحدته كيما تأتيه على الاقل من نفسه كيلا يكون عليه ان يتحملها ويكابد منها بشكل سلبي لقد شعر بأنه آخر بواسطة الكشف المفاجىء عن وجوده الفردي لكنه أكد وتبنى لحسابه في الوقت نفسه هذه الغيرية من خلال المذلة والحقد والكبرياء لقد جعل من نفسه من الآن فصاعداً وباحتداد عنيف محزون شخصاً آخر شخصاً آخر غير أمه التي كان يشكل واياها شخصاً واحداً، والتي اطرحته، شخصاً آخر غير زملائه الخشنين اللامبالين انه يشعر ويريد ان يشعر بأنه وحيد الى اقصى حد من حدود المتعة المتوحدة، وحيد الى حد الارهاب

لكن تجربة الهجران والانفصال هذه لم ينتج عنها كمقابل ايجابي الكشف عن فضيلة خاصة تنزله منزلة الانسان الذي لا قرين او شبيه له فالشحرور الابيض الذي تشنّع عليه جميع الشحارير السود يستطيع على الاقل ان يعزي نفسه بتأمله بطرف عينه بياض جناحيه لكن البشر ليسوا البتة شحارير بيضاً إن ما يكمن في إهاب ذلك الطفل المهجور أنما هو الشعور بغيرية شكلية خالصة فحتى هذه التجربة لا تستطيع ان تميزه عن الغير لقد أمكن لكل انسان ان يلاحظ في طفولته ظهور وعي الذات ظهوراً مجانياً وباعثاً على الاضطراب وقد سجل اندريه جيد ذلك في «لو ان الحبة لا تموت» . وسجلته بعده

السيدة ماريا لوهاردوان في «الشراع الاسود» لكن لم يجد احد التعبير عنه كما أجاد هيوز في «إعصار على جامايكا»

«كانت اميلي قد وجدت تسليتها في بناء منزل في خلوة من الخلوات في مقدمة السفينة وحين تعبت من هذه اللعبة سارت دونما هدف الى الوراء وخطرت لها على حين غرة فكرة ساطعة فكرة انها هي وإذ اقتنعت كامل الاقتناع بهذه الحقيقة المدهشة حقيقة انها الآن اميلي باس — ثورنتون طفقت تدرس بجدية مستلزمات مثل هذه الحقيقة اي ارادة قررت انها ستكون من بين جميع كائنات العالم هذا الكائن الخاص اميلي المولودة في سنة معينة من بين جميع السنين المؤلف منها الزمن أهي التي اختارت ؟ أهو الله ؟ لكن لعلها هي الله لقد كانت هنالك أسرتها وعدد معين من اشقائها وشقيقاتها الذين لم تفترق عنهم الى الآن افتراقاً كاملاً لكنهم يبدون لها الآن ، بعد ان اكتسبت بطريقة مفاجئة جداً الشعور بأنها شخص متميز يبدون غرباء غرابة المركب نفسه واستولت عليها رهبة مفاجئة: هل يعلمون ؟ هل يعلمون هذا ما تريد ان تقوله هل يعلمون انها كائن خاص اميلي بل ربما الله (لا مجرد اي فتاة صغيرة) كانت هذه الفكرة ترهبها دون ان تعرف السبب ينبغي ان يظل هذا سراً، مهما يكن الثمن »

---

١ — « اعصار على جامايكا » ١٩٣١ — ص ١٣٣ .

إن هذا الحدس الساطع فارغ كل الفراغ فقد اكتسب الطفل القناعة بأنه ليس اياً كان والحال أنّه يصبح اياً كان لاكتسابه على وجه التحديد هذه القناعة انه غير الآخرين هذا مؤكد لكن كل واحد من الآخرين هو ايضاً غير الآخرين لقد جرب بشكل سلبي محض تجربة الانفصال، وقد تناولت تجربته الشكل العالمي من الذاتية الشكل العقيم الذي يحدده هيغل بالمعادلة أنا فماذا يعمل باكتشاف يخيف ولا يفيد ؟ ان معظم الناس يعجلون بنسيانه لكن الطفل الذي لاقى نفسه من خلال اليأس والحنق والغيرة سيجعل محور حياته كلها التأمل الساكن لتفرده الشكلي انه سيقول لاهله «لقد طردتموني، ألقيتم بي خارج ذلك الكل الكامل الرائع الذي كنت ضائعاً فيه، وحكمتم علي بالوجود المنفصل حسناً انني اطالب بهذا الوجود ضدكم الآن. واذا ما اردتم فيما بعد ان تجذبوني اليكم وان تذوبوني من جديد فلن يكون ذلك ممكناً لأنني وعيت نفسي تجاه الجميع وضدهم ...» وسيقول لمن يضطهدونه، لزملاء المعهد، لأشقياء الشوارع: «انني غيركم غيركم جميعاً انتم الذين تعذبونني. تستطيعون ان تضطهدوني في جسمي، لا في «غيريتي» إن لفي هذا التأكيد مطالبة وتحدياً انه غيرهم انه لا يقع تحت متناولهم لأنه غيرهم ولأنه قد اخذ بثأره تقريباً من الآن . انه يفضل نفسه على الكل لأن كل شيء يتخلى

عنه لكن هذا التفضيل هذا الفعل الدفاعي قبل كل شيء هو ايضاً وفي مظهر من مظاهره صبوة نحو السمو ، باعتبار انه يضع الطفل بحضرة وعيه الخالص لذاته.

انه اختيار بطولي وحقود من قبل المجرد تعرٍ يائس نكوص وتوكيد في آن واحد معاً وهو يحمل اسماً انه الكبرياء الكبرياء الرواقية الكبرياء الميتافيزيقية التي لا تروي ظمأها الامتيازات الاجتماعية ولا النجاح ، ولا اي تفوق معترف به واخيراً لا شيء من هذا العالم لكنها كبرياء تطرح نفسها على انها حدث مطلق، انتخاب قبلي لا سبب له وتضع نفسها فوق المستوى الذي يمكن فيه للفشل ان يصرعها او للنجاح ان يدعمها

وهذه الكبرياء تعيسة بقدر ما هي صافية لأنها تدور في الفراغ وتغذي نفسها من نفسها انها تنهك ذاتها التي لا تشبع ابداً والتي تشتط ابداً ، في الفعل الذي توكد فيه نفسها انها لا تستند الى اي شيء انها معلقة في الهواء باعتبار ان التمايز الذي يؤسسها شكل فارغ وعام بيد ان الطفل يريد ان يتمتع بتمايزه يريد ان يشعر بأنه مختلف عن شقيقه كما يشعر بأن شقيقه مختلف عن ابيه انه يحلم بوحدانية يمكن القبض عليهـــا بالنظر باللمس بوحدانية تملؤك كما يملأ الصوت الصافي الأذن ان تمايزه الشكلي الخالص يبدو له رمزاً لتفرد اعمق يشكل كلاً واحداً مع ما هو كائن عليه انه ينحي على نفسه ، ويحاول ان

يفاجىء صورته في هذا النهر الرمادي الهادىء الذي ينساب بسرعة متساوية دوماً ويترصد رغباته ونوبات غضبه كي يفاجىء هذا القرار السري الذي هو طبيعته وعن طريق هذا الانتباه الذي يصبه دونما راحة على سير مزاجه، يبدأ بأن يصبح بالنسبة اليه شارل بودلير

إن الموقف الاصلي لبودلير هو موقف انسان منحنٍ منحنٍ على ذاته مثل نرجس ولا وجود عنده لوعي مباشر لا تخترقه نظرة حادة فنحن يكفينا ان نرى الشجرة البيت انا ننسى انفسنا إذ نستغرق في تأملها. وبودلير هو الانسان الذي لا ينسى نفسه ابداً انه ينظر الى نفسه حين يرى انه ينظر كي يرى نفسه وهو ينظر وهو انما يتأمل وعيه للشجرة او للبيت والاشياء لا تتجلى له إلا من خلال هذا الوعي فتبدو اشد شحوباً وأصغر حجماً، واقل تأثيراً على النفس، وكأنه يلمحها من خلال منظار انها لا تشير الى بعضها البعض كما يشير السهم الى الطريق كما تشير الشريطة الى الصفحة وفكر بودلير لا يضيع ابداً في متاهتها رسالتها المباشرة هي على العكس ان تُرجع الوعي الى الذات يكتب بودلير: «اي اهمية لما يمكن ان يكونه الواقع الموضوع خارجاً عني، اذا كان قد ساعدني على ان احيا على ان اشعر بانني كائن وبما كائن عليه» وسيكون همه الاول في فنه بالذات، ألا يُظهر الاشياء إلا من خلال كثافة الوعي

الانساني باعتبار انه سيقول في «الفن الفلسفي» «ما الفن الخالص حسب التصور الحديث انه يعني خلق سحر ايحائي يشتمل على الموضوع وعلى الذات ، على العالم الخارجي للفنان وعلى الفنان نفسه في آن واحد معاً» وهكـــذا يمكنه ان يكتب «مقالاً عن القليل من الواقع» الذي يملكه هذا العالم الخارجي إن الموضوعـــات التي ليست الا ذرائع انعكاسات شاشات لا تساوي شيئاً في حد ذاتها، وليس لها من رسالة اخرى غير اتاحة الفرصة له كي يتأمل نفسه اثناء رؤيته اياها

ثمة مسافة اصلية تفصل بودلير عن العالم ، مسافة ليست هي بمسافتنا إن بينه وبين الموضوعات دوماً شبه شفافية رطبة بعض الشيء قوية الرائحة بعض الشيء مثـــل هبوب الهواء الساخن صيفاً وهذا الوعي الملاحـــظ المراقَب الذي يشعر بأنـــه مراقَب اثناء ادائه لعملياته المعتادة ، يفقد في الوقت نفسه عفويته وتلقائيته ، شأنه شأن طفل يلعب على مرأى من الراشدين وهذه «العفوية» التي طالما أبغضها بودلير وتحسر عليها غير موجودة عنده البتة إن كل شيء مزور لأن كل شيء مدقق فيـــه وأدنى مزاج وأوهن رغبة انما يولدان بعد ان يكونا قد تم النظر اليهما وفك لغزهما ولئن تذكرنا بعض الشيء المعنى الذي اعطاه هيغل لكلمة مباشر لفهمنا ان تفرد بودلير العميق يكمن في انه الانسان الذي يخلو من كل ما هو مباشر.

لكن اذا كان لهذا التفرد من قيمة في نظرنا نحن الذين نراه من الخارج فإنه يفلت كل الافلات منه هو الذي ينظر الى نفسه من الداخل لقد كان يبحث عن طبيعته اي عن طبعه وكينونته لكنه كان لا يشهد الا التظاهرة الطويلة الرتيبة لحالاته النفسية ويأخذه الحنق لذلك انه يرى اوضح الرؤية ما يسبب تفرد الجنرال اوبيك[3] او تفرد أمه فكيف لا تتاح له الفرصة ليتمتع تمتعاً صميمياً بأصالته الخاصة هذا لأنه ضحية وهم طبيعي شائع يفترض ان داخل الانسان يرتسم على خارجه لكن الحال ليست كذلك هذه الصفة المميزة التي توضح صورته بالنسبة الى الآخرين ليس لها من اسم في لغته الداخلية وهو لا يشعر بها ولا يعرفها هل يستطيع ان يشعر بأنه ظريف، او متبدل، او متميز؟ بل هل يستطيع ان يلاحظ حدة ذكائه ومداه إن هذا الذكاء ليس له من حدود إلا نفسه وبودلير معتاد الى ابعد الحدود على ايقاع افكاره، اللهم إن لم يعجل المخدر للحظة ما في سيرها وهو يفتقر كل الافتقار الى لفظة صالحة للتشبيه بحيث لا يمكنه ان يقدر سرعة انسيابها اما عن تفاصيل افكاره وانفعالاته التي يشعر بها ويتعرفها حتى قبل ان تظهر، وهي الشفافة من اقصاها الى اقصاها، فتبدو له في سيماء « ما سبق له رؤيته » في سيماء « ما

---

٣ – هو الزوج الثاني لوالدة بودلير «المترجم»

هو معروف اكثر مما ينبغي » تبدو له مألوفة لا رائحة لها ذات طعم تذكاري انه مليء بنفسه بـــل إن نفسه لتطفح لكن هذه «النفس» ليست إلا مزاجاً تفهاً وزجاجياً محروماً من الصلابة ، من المقاومة ، لا يستطيع لا ان يحكم عليه ولا ان يراقبه بلا ظلال ولا اضواء كما انها ليست الا وعياً ثرثاراً يتحدث بنفسه عن نفسه في همسات طويلة دون ان يمكن دفعه الى التعجيل في كلامه انه ينتمي الى ذاته بقوة أكبر مما ينبغي بحيث لا يمكنه ان يقرد نفسه ولا ان يرى ذاته واضح الرؤية وهو يرى نفسه اكثر مما ينبغي بحيث لا يستطيع ان يغوص تماماً وان يضيع في انتماء صامت الى حياته الخاصة

انما ههنا تبدأ المأساة البودليرية تصوروا الشحرور الابيض وقد اصبح اعمى ـــ ذلك ان الوضوح الفكري الكبير اكثر مما ينبغي يعادل العمى إن بودلير تقض مضجعـــه فكرة بياض معين منبسط على جناحيه بياض تراه جميع الشحارير وتحادثه عنه جميع الشحارير وهو الوحيد الذي لا يدركه إن الصحو الفكري المشهور به بودلير ليس إلا جهداً للتعويض والمقصود منه هو ان يستملك نفسه من جديد ـــ وما دامت الرؤية استملاكاً ـــ وأن يرى نفسه لكن ينبغي للمرء كي يرى نفسه ان يكون اثنين إن بودلير يرى يديه وذراعيه لأن الـــعين متميزة عن اليد : لكن العين لا تستطيع ان ترى نفسها بنفسها ، بل

هي تشعر بذاتها وتحيا ذاتها وهي لا تستطيع ان تنفصل عن نفسها المسافة الكافية لتستطيع ان تقدر ذاتها وعبثاً يهتف في ازهار الشر

«يا لتلك الخلوة القاتمة الصافية للذات مع الذات خلوة بات القلب لها مرآة

إن خلوة « الذات مع الذات » هذه لا تكاد تُرسم على الورق حتى تتبخر ذلك انه ليس هناك الا ذات واحدة وسيصب بودلير كل جهده على التطرف والاشتطاط الى اقصى الحدود بتلك الصورة المجهضة للثنائية التي هي الوعي التأملي واذا كان صاحي الفكر منذ البدء ، فليس ذلك ليتبين اخطاءه بدقة وانما كي يكون اثنين واذا كان يريد ان يكون اثنين فهذا ليحقق عن طريق هذا الزوج الامتلاك النهائي للأنا من قبل الأنـــا انه سيشتط اذن في صحوه الفكري انه لم يكن الى الآن إلا شاهد نفسه الخاص وسوف يحاول ان يصبح جلاد نفسه الخاص (هوتونتيمو رومونوس) ذلك ان التعذيب يولّد اتحاداً وثيقاً من شخصين يستملك الجلاد من خلاله الضحية ولما لم يكن قد نجح في ان يرى نفسه ، فسوف ينقّب في ذاته على الاقل كما تنقب السكين في الجرح بأمل ان يصل الى تلك العزلات العميقة التي تشكل طبيعته الحقيقية .

---

١ — اسم مسرحية هزلية لتيرانس ومعناه «الرجل الذي يعذب نفسه » . « المترجم »

وهكذا تقلد العذابات التي ينزلها بنفسه الامتلاك فهي تميل الى توليد لحم تحت اصابعه لحمه الخاص كيما يتعرف هذا اللحم نفسه تحت وطأة الألم على انه لحمه هو. إن الإيلام يعني الامتلاك والخلق كما يعني الهدم والرابطة التي تربط الضحية بمندوب محاكم التفتيش هي رابطة جنسية، لكنه عبثاً يحاول ان ينقل الى حياته الصميمية هذه العلاقة التي ليس لها من معنى إلا بين اشخاص متمايزين عبثاً يحاول ان يحول الوعي المتأمل الى سكين والوعي المتأمل فيه إلى جرح فكلا الوعيين لا يشكلان بطريقة ما إلا وعياً واحـــداً ان الانسان لا يستطيع لا ان يحب نفسه ولا ان يبغضها ولا ان يعذب ذاته بذاته فالضحية والجلاد يتبخران في مثل هذه الحال في اللاتمايز الشامل باعتبار ان احدهما يطالب بالعذاب والآخر ينزله به بواسطة الفعل الارادي نفسه وسوف يريد بودلير عن طريق حركة معاكسة لكنها تنشد الهدف عينه ان يجعل من نفسه شريكاً خفياً لوعيه المتأمِّل فيه ضد وعيه المتأمَّل :فحين يكف عن تعذيب نفسه ، فهذا لأنه يحاول ان يدهش ذاته انه سيتصنع تلقائية محيرة وسيتظاهر بأنه يستسلم للاغراءات الاكثر مجانية كيما ينتصب على حين غرة امام نظرته الذاتية وكأنه موضوع غير شفاف

ولا يمكن التنبؤ به وباختصار كأنه غير ذاته واذا ما توصل الى ذلك يكون قد أنجز اكثر من نصف العمل: وسيستطيع ان يستمتع بذاته لكنه هنا ايضاً لا يشكل إلا شخصاً واحداً مع من يريد ان يفاجئه وليس من المبالغة البتة ان نقول انه كان يخمن مشروعه حتى قبل ان يفكر به فقد كان يتوقع ويقيس مفاجأتــه ويجري خلف اندهاشه الخاص دون ان يبلغه ابداً ان بودلير هو الانسان الذي اختار ان يرى نفسه كما لو انــه شخص آخر وحياته ليست الا قصة هذا الفشل

ذلك انه يعرف حق المعرفة رغماً عن الحيل التي سنعددها لتونا والتي نسجت الوجه الذي اخذه في نظرنا الى الأبد يعرف ان نظرته المشهورة تشكل كلاً واحداً مع الموضوع المنظور اليه وانه لن يصل ابداً الى امتلاك حقيقي لنفسه بــل فقط الى ذلك التذوق البطيء الذي يميز المعرفة التأملية انه يسأم وهذا السأم الذي هو مرض غريب منه تنبع جميع امراضه وكل تقدمه البائس[1] ليس حادثاً عرضياً ولا ثمرة « عدم فضوله » المشمئز كما يدعي احياناً بل هو « سأم الحياة المحض » الذي يتكلم عنه فاليري انه الطعم الذي يشعر به الانسان بالضرورة عن ذاته انه نكهة الوجود

---

١ — قصائد منثورة : اللاعب الكريم ص ١٠٥ .

اني مخدع قديم مليء بأوراد ذابلة
ترقد فيه اخلاط من اساليب بالية
تتنفس فيه لوحات الباستيل الشاكية ورسوم بوشيه الشاحبة
لوحدها رائحة عطر مسفوح

هذه الرائحة الباهتة المنتشية بزجاجة عطر مسفوح المسيطرة على الحواس ، والتي لا تكاد تُدرك ، والحاضرة بعذوبة برهبة هي افضل لوجود الوعي وجوداً لذاته وعلى هذا فإن السأم شعور ميتافيزيقي مشهد بودلير الداخلي المادة الابدية التي صنعت منها افراحــه وآلامه وهيجاناته وهوذا وجهه الجديد لقد فهم بعد ان سيطر عليه تفرده الشكلي ، ان هذا التفرد مقسوم لكل انسان فسار آنذاك في طريق الصحو الفكري كيا يكتشف طبيعته المتفردة ومجموع السمات التي تستطيع ان تجعل منه الكائن الذي لا يمكن أن يحل محله اي كائن آخر لكن ما صادفه على دربه لم يكن وجهه الخاص الاشكال اللامحدودة للوعي الكوني إن الكبرياء ، والصحو والسأم ، تشكل كلاً واحداً ووعي الجميع وكل فرد هو الذي يدرك نفسه ويتعرفها من خلال ذلك الكل الواحد ورغماً عنه

والحال ان الوعي يلتقط نفسه في البدايــة من خلال مجانيته الكاملة ، بلا سبب ولا هدف ، ومن غير ان يكون

مخلوقاً ولا مبرراً ليس له من صفة وجودية إلا هذه الصفة الوحيدة صفة انه موجود منذ البداية إن هذا الوعي لا يستطيع يجد خارجاً عنه ذرائع او اعذاراً، أو أسباباً للكينونة باعتبار انــه لا يمكن لأي شيء ان يوجد بالنسبة اليه لم يعــه وباعتبا ليس لأي شيء من معنى الا المعنى الذي يريد هذا الوعي ان ينسبه اليه ومن هنا كان حدس بودلير العميق بلا جدواه. وسوف نرى فيما بعد هوس الانتحار هو بالنسبة اليـه وسيلة لحماية حياته منه وسيلة لوضع حد لها لكن اذا كان قد امكنه في كثير من الاحيان ان يفكر بإمكانية انتحاره فهذا لأنه كان يشعر بأنه انسان كتب في رسالته المشهورة عام ١٨٤٥

اني انتحر لأنني غير نافـــع للآخرين وخطر على نفسي

وينبغي الا نظن انه يشعر بأنه غير نافع لأنه بورجوازي شاب بدون مهنة لا يزال يعيش في كنف أسرته رغم انه بلغ الرابعة والعشرين بل على العكس من ذلك تماماً، فهو اذا لم يكن قد اتخذ مهنة له فهذا لأنه ترفع البداية عن كل مشروع وادرك لا جدواه الجذرية وسيكتب في زمن لاحق لكن بفخر هذه المرة « أن يكون الانسان نافعاً لقد بدا لي هذا دوماً أمراً كريهاً ». لكن التناقض يتأتى عن وثبات المزاج : فسواء ألتهم نفسه

ام تباهي   فإن المهم هو هـــذا التجرد الدائم والأولي تقريباً اما من يريد ان يكون نافعاً فيسير في عكس طريق بودلير انه يجيء من العالم الى الوعي وينطلق من بعض المبادىء السياسية او الاخلاقية المتينة التي يعتبرها مطلقة والتي يخضع لها هو نفسه اولاً انه لا يعتبر نفسه جسماً وروحاً إلا كشيء معين بين الاشياء فيخضع لقواعد لم يوجدها بنفسه ، وكأنه وسيلة لتحقيق نظام معين. لكن اذا ما اكتظ الانسان الى حد الغثيان بهذا الوعي البعيد عن الصواب الذي يتوجب عليه ان يخترع القوانين التي يريد ان يرضخ لها فإن النفعية تفقد كل معنى ولا تعـــود الحياة إلا مجرد لعب ويتوجب على الانسان ان يختار بنفسه هدفه دونما توصية دونما انذار دونما نصيحة ومن يتبين مرة واحدة هذه الحقيقة التي تنص على انه ليس هناك من غايـــة اخرى في الحياة الا الغاية التي يعطيها الانسان لنفسه بملء ارادته فإن رغبته في البحث عن مثل هذه الغاية تخبو وتهمد

يكتب بودلير ليس للحياة إلا روعة حقيقية واحدة: ألا وهي روعة القمار لكن اذا كنـــا لا نبالي بالربح او الخسارة فكي نؤمن بمشروع مـــا فلا بد ان نكون ملقى بنا فيه اولاً وان نتساءل عن وسائل إنجاحه لا عن غايته ان كل مشروع بالنسبة لمن يفكر هو مشروع عبثي ولقد سبح بودلير في هذا العبث .

وعلى حين غرة وبسبب تفاهة او خيبة او تعب ، اكتشف العزلة اللامتناهية لهذا الوعي الرحيب كالبحر » الذي هو في آن واحد الوعي ووعيه وفهم عجزه عن ايجاد حدود أو نقاط ارتكاز ، او محطات خارجاً عنه. وعندئذ اصبح عائماً وترك الامواج الرتيبة تتقاذفه وعندما كان تحت تأثير حالة كهذه كتب الى امه

ما أحس به هو خيبة لا محدودة احساس بانعزال لا يحتمل غياب كلي للرغبات واستحالة ايجاد اي تسلية ان نجاح كتابي الغريب والاحقاد التي اثارها ، قد اسرت اهتمامي فترة من الزمن ، ثم عاودت السقوط بعد ذلك[1] »

وهذا ما يسميه هو نفسه كسله أما أن لهذا الكسل مظهراً مرضياً فأنا اقبل بذلك واما انه يشبه الى ابعد حدود الشبه بعض الاضطرابات التي جمعها جانيه تحت اسم البسيكاستينيا[2] فإنني أرضى بذلك ايضاً لكن لا ننس ان مرضى جانيه يشعرون في غالب الاحيان ، وبفضل حالتهم بحدوس ميتافيزيقية يبذل الانسان السوي جهده لاخفائها عن نفسه ان دافع هذا الكسل ومعناه كامنان في ان بودلير لا يستطيع ان « ينظر بعين الجد » الى مشاريعه انه يرى بما فيه الكفاية من الوضوح ان

---

١ — اي حالات الوهن النفسي « المترجم »

٢ — رسالة ٣٠ كانون الاول ١٨٥٨

الانسان لا يجد فيها ما قد وضعه فيها

ومع ذلك لا بد من العمل فإذا كـــان من ناحية اولى السكين النظرة المتأملة الصافية التي ترى امامها تدفق امواج الوعي المتأمَّل فيه، المتسارعة، فهو ايضاً، وفي الوقت نفسه الجرح تتمة هذه الامواج بالذات واذا كـــان موقفه التأملي هو بحد ذاته قرف من العمل ، فأنه هو نفسه اي بودلير من الاسفل وعن طريق كل وعي صغير مؤقت يعكسه فعل مشروع امل وعلى هذا ينبغي الا نعتبره من دعاة مذهب الهدوء والخمول بـل ان نرى فيه بالاحرى تتابعاً لامتناهياً من المشاريع العرضية، التي تجردها النظرة التأملية فوراً من سلاحها بحراً مـن مشاريع تتلاشى ما إن تظهر ، انتظاراً دائماً رغبة دائمة في ان يكون شخصاً آخر في ان يكون في مكان آخر. وانا لا اتكلم هنا فقط عن تلك الحيل العديدة التي كـان يحاول بواسطتها بعصبية وبتعجل ، ان يؤخر موعد دفع سند من السندات ان يسرق بعض القروش من امه ان يأخذ سلفة من آنسيل بـــل اتكلم ايضاً عن تلك المشاريع التي جرّها عشرين عاماً وراءه من مسرحيات، وانتقادات و « قلبي العاري دون ان يتوصل ابداً الى إنجازها إن شكل كسله هو الخمول احياناً لكنه في غالب الاحيان اضطرام محموم عقيم يعرف انـــه لا مجدٍ ويسمه صحو فكري عديم الشفقة . ان مراسلاته

تظهره لنا كنملة تعاند في تسلق جدار ، فتسقط وتعاود التسلق في كل مرة تسقط فيها ذلك انه ما من انسان عرف خيراً منه لا جدوى جهوده واذا كان يعمل فهذا ، كما يقول هو نفسه ، بدافع الانفجار بدافع الهزّة حين يمكنه لثانية من الزمن،ان يخدع صحوه هناك طبائع تأملية خالصة وغير صالحة مطلقاً للعمل ، لكنها تعمل احياناً بدافع غامض ومجهول بسرعة كبيرة هي اول من تشك في عجزها عنها إن هذه النفوس العاجزة عن إنجاز أبسط الاشياء واكثرها ضرورة تجد في لحظة معينة شجاعة بالغة لتنفيذ اكثر الافعال عبثاً بل اكثرها خطراً احياناً

انه يطلق على افعال اللحظة هذه اسم « الافعال المجانية » انها لامجدية بكل صراحة بل إن لها في غالب الاحيان طابعاً هداماً وينبغي للمرء ان يسرع في إنجازها قبل عودة النظر التي ستسمم كل شيء ومن هنا كان ذلك الطابع الآسر الآمر المتعجل في رسائله الى امه

انني مرغم على المضي بسرعة بسرعة كبيرة !

انه يحنق على آنسيل ، وغضبه رهيب ويكتب خمس رسائل الى امه في اليوم نفسه،ورسالة سادسة في صباح اليوم التالي.وفي الرسالة الاولى لا يتكلم عن شيء اللهم إلا

---

١ - قصائد نثرية صغيرة : الزجاج الرديء

عن صفعه

« آنسيل حقير ، سأصفعه امام زوجته واولاده سأصفعه في الساعة الرابعة (الساعة الآن الثانية والنصف) »

ان الكلمات المكتوبة بحروف بارزة مستعملة هنا وكأنها ستحفر قراره في الرخام ، لشدة خوفه من ان ينساب من بين يديه ومشاريعه قصيرة الامد للغاية وهو يرتاب اشد الريبة من اليوم التالي حتّى انه يعين لنفسه ساعة نهائية لإنجازها الساعة الرابعة . والوقت المتبقي لديه لا يكاد يكفيه للذهاب الى بلدة نويي لكنه في الساعة الرابعة يرسل الى امه مذكرة جديدة لن اذهب الى نويي اليوم . انني اقبل الانتظار قبل ان انتقم » ان المشروع ما زال قائماً لكنه قد جُمِّد واخذ صيغة شرطية

« اذا لم احصل على اعتذار صارخ ، فسوف أضرب آنسيل سوف اضرب ابنه

بل انه لا يذكر ذلك إلا في الحاشية خوفاً من ان يبدو انه قد تراجع بسهولة اكبر مما ينبغي بدون شك وعند المساء يخبو المشروع اكثر ايضاً

« لقد استشرت شخصين حول ما ينبغي أن افعله من الخبث والشر ان اضرب رجلاً مسناً امام افراد اسرته. لكن لا بد لي من اعتذار — ماذا سأفعل إن لم أنل هذا

الاعتذار ؟ سيتوجب — على الاقل — ان اذهب لأقول له امام زوجته وأسرته رأيي في سلوكه »

إن ضرورة العمل تبدو له من الآن حملاً ثقيلاً للغاية. لقد كان لتوه يريد ان يبث الذعر في قلب أمه ، ويساومها بواسطة العنف انه بحاجة الى اعتذار صارخ فوراً اما الآن فهو يموت رعباً من « ألا يحصل الاعتذار ذلك انه سيُرغَم في مثل هذه الحال على العمل إن كل هذه القضية قد باتت تسئمه فيكتب على اثر المقطع الذي ذكرناه آنفاً

« في اي ورطة اوقعتني يا إلآهي ! انني في مطلق الحاجة الى راحة انني لا اسأل اكثر من ذلك »

وفي صباح الاحد لم يعد هناك مجال لاعتذار او لتعويض « ينبغي ألا اكتب له شيئاً باستثناء كلمة واحدة اقول له فيها انني لم اعد بحاجة الى ماله »

الصمت النسيان إعدام آنسيل اعداماً رمزياً ، هذا كل ما يطالب به انه ما يزال يتكلم عن الانتقام ، لكن في عبارات مبهمة ومن خلال مستقبل مؤجل وبعد تسعة ايام، كان كل شيء قد انتهى

« رسالتي بألامس الى آنسيل كانت لائقة ولقد كانت المصالحة لائقة

« لقد جاء إلي بينما كنت ذاهباً اليه انني سئم اشد السأم من كل هذه الشائعات ، حتى انني لم اشأ ان اتحمل

مشقة التحقيق فيما اذا كان آنسيل قد جاء ليوبخ دانوفال ذاك

« لقد قال لي آنسيل انه سيكذّب تكذيباً قاطعاً معظم العبارات الآنفة الذكر

« بالطبع انني لا اريــد ان اوازن كلامه بكلام تاجر وعلى كل حال ، فإن عيبه الذي لن يصلحه ابداً هو فضوله الطفولي والقروي وتلك السهولة في الثرثرة مع جميع الناس »

هذا هو ايقاع العمل لدى بودلير عنف مغالى فيــه في التصور ، وكأن هذه المبالغة ضرورية لتمنحه القوة على تحقيق ذاته ومباغتة انفجارية عند بداية التحقيق ثم يعود الصحو الفكري عــلى حين غرة ما الفائدة ! ويشيح عن عمله الذي يتفسخ بسرعة إن ما يحرمــه عليه مــوقفه الاصلي انمــا هي المشاريع الطويلة الأمد وعلى هذا فـإن حياته تمثل مظهراً متقطعاً متعثراً ، ورتيباً في الوقت نفسه انهــا معاودة دائمة وفشل دائم فوق خلفية من اللامبالاة القاتمة ، ولو لم يؤرخ رسائله الى أمه لكان من بالغ الصعوبة تصنيفها لأنها تتشابه كافة لكن تلك المشاريع التي لا يستطيع أن يحققها، من افعال عرضية او اهداف متصلة ، انما هي التي يراها دوماً ، وهي التي تغويه بلا انقطاع ملحاحة ومجردة مـن سلاحها . واذا

١ – الرسائل من ٢٧ شباط الى ٩ آذار ١٩٥٨ .

كان قد حذف من نفسه كل تلقائية الوعي المتأمل فيه فإنه قد عرف بذلك طبيعته معرفة افضل انه يعلم ان هذا الوعي يرمي بنفسه خارجاً عن ذاته ، وانه تجاوز نفسه نحو غاية من الغايات لهذا ربما كان اول من عرّف الانسان بأنه ما وراء ذاته

واأسفاه إن رذائل الانسان تشتمل على الدليل على حبه اللامتناهي لكنه حبٌ كثيراً ما يخطيء طريقه.. وانما في انحطاط معنى اللامتناهي هذا يكمن ، في رأيي، سبب جميع انواع الشطط الاجرامية [1] »

إن اللامتناهي بالنسبة اليه ليس امتداداً معطى لا حدود له وإن كان يستعمل الكلمة بهذا المعنى احياناً إن اللامتناهي هو على وجه الدقة ما لا ينتهي ابداً ، هو ما لا يمكن ان ينتهي إن سلسلة الاعداد ستكون لامتناهية، على سبيل المثال ، لا بواسطة وجود عدد كبير جداً نسميه لامتناهياً بل بواسطة الامكانية الدائمة في إضافة وحدة لى هذا العدد مهما كان كبيراً وعلى هذا فإن كل عدد من السلسلة له ماوراءه ذلك الماوراء الذي يتحدد العدد بالنسبة له ويتعين موضعه لكن هذا الماوراء غير موجود بعد ملء الوجود فعلي أن اشيده بإضافة الوحدة الى العدد الذي افكر به . إنه يعطي من الآن معناه لجميع الاعداد المكتوبة،ومع ذلك فإنه على أهبة عملية لم اقم بها

---

١ — الجنات الاصطناعية

بعد وهذا هو شأن لامتناهي بودلير انه ما هو كائن دون أن يكون معطى انه ما يحددني اليــوم والذى لن يوجد مع ذلك قبل الغد انه الحد الملموح المرجو الملموس تقريباً وإن كان بعيد المنال لحركة موجهة. وسنرى فيما بعد ان بودلير حريص على هذه الوجــودات الموحى بها الحاضرة والغائبة في آن واحد معاً اكثر من حرصه على اي وجود آخر لكن من المؤكد انــه اعترف منذ أمد طويل بأن هذه اللانهائية هي قسمة الوعي. انه يتمى ، في « الدعوة الى السفر وفي قصائد صغيرة نثرية » ان يحلم أن يمدد الساعات عن طريق لاتناهي الاحساسات ويكتب في الكونفيتيور ثمــة إحساسات لذيذة لا ينفي إبهامها كثافتها وليس ثمة من نصل أحدّ من نصل اللامتناهي » وهذا التحديد للحاضر من قبل المستقبل وللموجود من قبل ما لم يوجد بعد هو ما سيسميه عدم الرضى — سنعود اليه — ومــا يدعوه الفلاسفة اليوم بالصبوة فما من أحد فهم مثله ان الانسان هو « كائن الابعاد [1] الذي يتحدد بغايته وبنهاية مشاريعه اكثر بكثير مما يمكن ان نعرفه عنه اذا ما قصرناه على اللحظة التي تنصرم

إن في كل انسان لحظة إلحاحين متواقتين ، احدهما نحو الله والآخر نحو الشيطان

---

١ — هيدجر .

إن الابتهال الى الله او الى الروحانية هـو رغبة في الارتقاء والابتهال الى الشيطان او الى الحيوانية هو فرح بالهبوط

وعلى هذا فإن الانسان يتكشف كتوتر ناتج عن بذل طاقتين متعارضتين وكل طاقة من هاتين الطاقتين تنشد في الحقيقة دمار ما هو انساني ما دامت احداهما تتطلع الى الملاك والاخرى الى الحيوان وحين يكتب باسكال ان الانسان ليس لا ملاكاً ولا حيواناً فإنه يفهمه على انه حالة سكونية معينة طبيعة متوسطة امـا ههنا فلا شيء من هذا فالانسان البودليري ليس حالة انه تداخل حركتين متعارضتين بعيدتين عن المركز بقدر متماثل احداهما تتجه نحو الأعلى والأخرى نحو الاسفل حركتان لا محرك لهما انبثاقان شكلان من اشكـال الصبوة نستطيع ان نسميها ، حسب تعبير جان فال ، صبوة صاعـدة وصبوة نازلة ذلك انه ينبغي علينا ان نفهم حيوانية الانسان ــ شأنها شأن ملائكيته ــ بمعناها العميق فهي لا تعني الضعف الجسدي المشهور او القوة الفائقـة للغرائز الدنيا فحسب ذلك ان بودلير لا يقتصر عـلى تمويه موعظة من مواعظ الاخلاقيين بصورة ملونة انـه يؤمن بالسحر ، و الابتهال الى الشيطان يبدو له عملية سحر شبيهة الى ابعد حدود الشبه بالعملية التي يقوم بهـا البدائيون المتنكرون بقناع دب ، والراقصون رقصة الدب،

كيما يصبحوا دببة وهو بالأصل يعبر عن ذلك بوضوح كبير في صواريخ

مينيت ، مينوت مينوي ، هري الصغير ذئبي ، قردي الصغير قردي الكبير ثعباني الكبير حماري الكئيب الصغير

إن مثل هــذه النزوات اللغوية الكثيرة التكرار والكثير من التسميات الحيوانية المشابهة تشهد عـلى جانب شيطاني في الحب أفليس للشياطين اشكـال حيوانات ؟ او ليس جمل كازوت [1] جملاً وابليساً وامرأة ؟

إن هذا الحدس بصبوتنا وبعجائيتنا غير المبررة ينبغي ان يكون في الوقت نفسه كاشفاً عن الحريـة الانسانية والـواقع ان بودلير قد شعر دوماً بأنه حر وسنرى فيما بعد بأي الحيل اراد ان يخفي هذه الحرية عن عينيه لكنها تؤكد نفسها وتنفجر رغماً عنه ، من اول جملة الى آخر جملة في آثاره ومراسلات. ومما لا ريب فيه انه لم يعرف ــ للأسباب التي ذكرناها ــ حرية البناة الكبيرة. لكنه يملك تجربة عدم قابلية للتنبؤ انفجارية لا يستطيع اي شيء ان يقف في وجهها . وعبثاً يُكثر من الاحتياطات ضدها وعبثاً يدوّن بأحرف كبيرة في اوراقه الأمثال السائرة الصغيرة العملية والقواعد والاوامر وأفعال

---

[1] ــ جاك كازوت كاتب فرنسي ، مؤلف قصة « الشيطان العاشق » . ١٧١٩ ــ ١٧٩٢ . « المترجم »

الايمان والقوانين التي تحكم مسبقاً على المستقبل[1] انه يفلت من نفسه ، ويعرف انه لا يستطيع ان يعتمد على اي شيء ولو كان يشعر على الأقل الى حد ما بأنه آلية لأمكنه ان يكتشف الرافعة التي توقف او تحرف او تعجل بسير الآلة ان الحتمية مطمئنة فمن يعرف الاسباب يستطيع ان يؤثر عن طريق الاسباب ، ولقد قام كل جهد الاخلاقيين حتى الآن على إقناعنا بأننا قطع مركبة في آلة تستطيع ان تتحكم في نفسها بواسطة وسائل صغيرة وبودلير يعرف ان النوابض والروافع ليس لها من دخل او تأثير في حالته انه ليس علة ولا معلولاً انه لا يستطيع شيئاً اليوم ضد ما سيكونه غداً انه حر ، وهذا يعني انه لا يستطيع ان يجد في نفسه ولا خارجاً عن نفسه اي ملجأ ضد حريته انه ينحني عليها ويشعر بالدوار امام هذه الهوة

لقد احسست دوماً امام ما هو اخلاقي او ما هو فيزيائي بأنني امام هوة لا هوة النوم فحسب ، بل ايضاً هوة العمل الحلم الذكرى ، الرغبة ، الأسف، تأنيب الضمير الجمال العدد الخ »

ويكتب في موضع آخر

« الآن ، اشعر دوماً بالدوار »

بودلير الانسان الذي يشعر بأنه هوة كبرياء ،

---

١ — بلان : « بودلير » — ص ٤٩

سأم دوار انه يرى نفسه حتّى اعماق قلبه لا شبيه له بلا اتصال مع الآخرين ، غير مخلوق عبثياً لا مجدياً مهجوراً في انعزال تام ، يتحمل وحده عبء ذاته محكوماً عليه بأن يبرر وحده وجوده ، يفلت من نفسه باستمرار ينساب من بين اصابع ذاته منطوياً على نفسه متأملاً وفي الوقت نفسه ملقى به خارج ذاته في مطاردة لامتناهية في هوة لا قاع لها بلا حواجز ولا ظلام في سر مبهم في وضح النهار لا يمكن التنبؤ به ، ومعروفاً تمام المعرفة لكن صورته ايضاً تفلت منه ، لسوء حظه كان يبحث عن انعكاس شخص يدعى شارل بودلير ابن الجنرال اوبيك الشاعر المدين عاشق الزنجية دوفال فصادفت نظرته الشرط الانساني ، إن تلك الحرية تلك المجانية ذلك الهجران الذي يخيفه ، انما هو قسمة كل انسان لا قسمته وحده فهل ثمة من يعرف كيف يلمس نفسه ، ويرى ذاته ؟ ان تلك الماهية الثابتة والفريدة التي يبحث عنها، ربما لا تتجلّى إلا في نظر الآخرين وربما كان من الضروري ان يكون الانسان في الخارج كيما يستطيع ان يلتقط صفاتها وربما لم يكن الانسان كائناً بالنسبة لذاته على صورة كينونة الشيء . بل لعله ليس كائناً البتة انه دائماً موضع سؤال دوماً في حالة وقف تنفيذ وربما كان عليه دوماً ان يصنع نفسه . إن كل جهد بودلير سيقوم على إخفاء هذه الافكار

البغيضة عن نفسه وما دامت « طبيعته » تفلت منه ، فإنه سيحاول ان يتلقفها من خلال نظر الآخرين وتتخلى عنه نيته الصادقة ، ويتوجب عليه بلا انقطاع ان يقنـع نفسه وتتجلى امام أعيننا ـ لا امام عينيه ـ سمة جديدة من سمات وجهه انه الانسان الذي شعر اكثر من اي انسان آخر بشرطه الانساني ، فسعى بأشد الحماسة الى اخفائه عن نفسه

لقد وضع بودلير نفسه لاختياره الصحو الفكري ، ولاكتشافه رغماً عنه المجانية والهجران وحرية الوعي المخيفة وضع نفسه امام إحراج فما دامت المبادىء الجاهزة التي يستطيع الانسان ان يتشبث بها غير موجودة، فعليه إما ان يركن الى مذهب في اللامبالاة اللااخلاقية واما ان يخترع بنفسه الخير والشر إن على الوعي باستمداده قوانينه من نفسه ، ان يعتبر نفسه حسب تعبير كانت ، مشرّعاً لمجتمع الغايات إن عليه ان يتحمل مسؤولية كاملة وان يخلق قيمه الخاصة ، ومعنى العالم ومعنى حياته الخاصة. ويقيناً ان الانسان الذي يصرح ان مـا يخلقه الفكر هو اكثر حياة من المادة قد شعر اكثر من اي انسان آخر بقوى الوعي ورسالته فهو قد رأى أنه مع الوعي ينبجس شيء ما في العالم لم يكن موجوداً من قبل اعني به الدلالة وعلى هذا فان الوعي يعمل على جميع المستويات، وثمة نوع من الخلق يستمر بشكل دائم . ولقد علّق بودلير

قيمة كبيرة على هذا الانتاج مـن لا شيء الذي يميز في نظره الفكر حتى ان ثمة اندفاعاً خلاقاً تخترق خمـول حياته التأملي من اقصاه الى اقصاه ان عدو المجتمع هذا يملك مذهباً انسانياً في الخلق انه يقبل بوجود « ثلاثـة كائنات محترمة الكاهن والمحارب والشاعر اي المعرفة والقتل والخلق » وسنلاحظ ان التدمـير والخلق يشكلان هنا زوجاً متحداً ففي كلتا الحالتين يوجد انتاج لأحـداث مطلقة وفي كلتا الحالتين يكون انسان واحد من الناس مسؤولاً وحده عن تغير جذري في العالم. وتعارض هذا الزوج المعرفة التي ترجعنا الى الحياة التأملية. ولا نستطيع ان نفوق بودلير في تعبيره عن هذا التكامل الذي سيربط دوماً في نظره قوى الفكر السحرية بصحوه السلبي فهو انما بالخلق سيحدد الانسان لا بالعمل ان العمل يفترض مذهباً حتمياً ويدخل فعاليته في سلسلة المعلولات والعلل ويخضع للطبيعة كيما يتحـكم فيها ويذعن لمبادىء جمعها بشكل اعمى ولا يضع ابداً صلاحيتها موضع تساؤل إن رجل العمل هو الرجل الذي يتساءل عن الوسائل لا عن الغايات البتة وما من احد بعيد عن العمل بُعد بودلير عنه انه يضيف ، على اثر المقطع الذي اتينا على ذكره إن البشر الآخرين قابلون لأن تفرض عليهم الضرائب والسخرة ولقد خُلقوا من اجل الاصطبل اي لممارسة ما يسمى بالمهن » . لكن الخلق

حرية خالصة فقبله لا وجود لشيء وهو يبدأ بإنتاج مبادئه الخاصة ويبتكر قبل كل شيء غايته ومن هنا يساهم في مجانية الوعي انه تلك المجانية المرادة المفكر فيها تكراراً المنزلة منزلة الهدف وهذا ما يفسر جزئياً حب بودلير للتصنع ان الاخضبة والحلي ، والملابس ، والاضواء ، تمثل في نظره عظمة الانسان الحقيقية قدرته على الخلق اننا نعرف انه ساهم بعد ريتيف [1] وبلزاك وسو [2] كبير المساهمة في ما يسميه روجيه كايـــوا « اسطورة المدينة الكبيرة ذلك ان المدينة خلق دائم. إن بناياتها وروائحها وضجيجها وذهابها وايابها تنتمي الى الملكوت الانساني ان كـــل شيء فيها شعر بالمعنى الدقيق للكلمة وبهذا المعنى كان الاندهاش الذي يستولي على مشاعر الشباب حوالي عام ١٩٢٠ امام اللافتات الكهربائية والتنوير بالنيون والسيارات اندهاشا بودليريـاً عميقاً والمدينة الكبيرة هي انعكاس هذه الهوة الحرية الانسانية وبودلير الذي يكره الانسان و « طغيـــان الوجه الانساني » نجد نفسه انساني النزعة عن طريق عبادته للمآثر الانسانية

لكن اذا كانت هـــذه هي الحال فان على الوعي

---

١ — نيقولا ريتيف كاتب فرنسي له روايات داعرة لكنها مليئة بالملاحظة منها « الفلاح المتنكر » و « السيد نقولا (١٧٤٣ — ١٨٠٦)

٢ — اوجين سو روائي فرنـسي ، مؤلف اسرار باريس (١٨٠٤ — ١٨٥٧) . « المترجم »

الصاحي والمأخوذ قبل كل شيء بقوته الخلاقة ، ان يخلق اولاً المعنى الذي سينير بالنسبة اليه كلية العالم ان الخلق المطلق ، الخلق الذي لن تكون جميع الابتكارات الاخرى الا نتائج له هــو خلق سلم للقيم انّنا نتوقع اذن ان يبرهن بودلير على جرأة نيتشوية في بحثه عن الخير والشر — عن خيره وشره والحال ان من يدرس عن قرب قريب حياة الشاعر وآثاره ، فسيفاجأ بأن بودلير تلقّى من الغير مفاهيمه الاخلاقية ولم يطرحها قط على بساط البحث وهذا مفهوم فيما لو ان بودلير اخذ موقف اللامبالاة وأظهر تهاوناً ابيقورياً لكن المباديء الاخلاقية التي يحافظ عليها والتي زودته بهــا تربية كاثوليكية وبورجوازية ليست بالنسبة اليه مجرد بقايا وآثار ووسائل لامجدية ويابسة لقد عاش بودلير حياة اخلاقية كثيفة وتلوى مع تأنيب الضمير وحث نفسه في كل يوم على ان يحسن التصرف وناضل وسقط وأرهقه احساس فظيع بالاثم الى حد امكن معه التساؤل عمّا اذا كان لا يحمل وزر اخطاء سريّة ولقد لاحظ السيد كريبيه عن حق في تقديمــه لديوان ازهار الشر » الذي استعرض فيــه سيرة حياة بودلير

هل توجد في حياته اخطاء لا يمحوها الزمن البتة ؟ هذا بعيد الاحتمال بعد كل التحقيقات التي احيطت بها ومع ذلك فإنه يعامل نفسه كمجرم ويعلن انــه مجرم

« من جميع النواحي » انه يفضح نفسه باعتباره يملك « مفهوم الواجب وجميع الالتزامات الاخلاقية ويخونها دوماً »

كلا إن بودلير لم يثقل كاهله بجرائم سرية وما يمكننا ان نأخذه عليه لا يستحق الشنق جفاف عاطفي واقعي بما فيه الكفاية لكنه غير شامل ، وشيء من الكسل ، والافراط في استعمال المخدرات وبعض الشذوذ الجنسي بلا ريب وبعض السماجات التي تقارب احياناً الاحتيال ولو انه قرر لمرة واحدة فقط ان ينقض المبادىء التي كان الجنرال اوبيك وآنسيل يدينانه باسمها لكان تحرر منها لكنه بعيد عن الاقدام على مثل هذا العمل فهو يتبنى بلا نقاش اخلاق زوج أمه والقرارات المشهورة التي اخذها حوالي عام ١٨٦٢ والتي يشير اليها تحت اسم

الصحة والسلوك والاخلاق هي قرارات صبيانية الى حد محزن

حكمة مقتضبة تسريح الشعر والصلاة ، والعمل

إن العمل يولّد بالضرورة العادات الطيبة ، والتقشف ، والعفة وبالتالي الصحة والغنى والعبقرية المتوارثة والمتدرجة ومحبة القريب افعل ما تفعله

تقشف عفة عمل محبة القريب إن هذه الكلمات تتردد بلا انقطاع تحت ريشته لكن ليس لها

من محتوى ايجابي ولا ترسم لـــه خط سلوك ولا تسمح له بحل المشكلات الكبيرة التي تطرحها العلاقات مع الغير والعلاقات مع الذات انهـــا تمثل فقط سلسلة من التدابير الدفاعية الحازمة والسالبة كل السلبية فالتقشف يعني عدم تناول المهيجات والعفة تعني عدم العودة الى هاتيك الغانيات السهلات المرحبات اللواتي ترقد عناوينهن في دفتره والعمل يعني الا يؤجل الى الغد ما يستطيع ان يفعله اليوم ومحبة الغير تعني عدم الغضب وعدم الاحتداد ، وعدم ازدراء الغير انه يعترف أصلاً بأنه يملك « مفهوم الواجب » اي انه يفهم الحياة الاخلاقية على انها إكراه ، لجام يجرح فماً جامحاً لا على بحث ملتاع اندفاع عاطفي حقيقي

ملاك حانق ينقض من السماء كنسر
فيمسك بشعر الكائن بكل قبضتيه
ويقول وهو يهزه ستعرف القاعدة
(ذلك انني ملاكك الحارس أتسمع)
اني اريد ذلك

إن القيم والقواعد التي كانت اساساً لكل حياته الاخلاقية كانت عبارة عن اوامر خشنة ومعذبة مضمونها فقير الى حد مثبط . وحين كان يحتد على حين غرة ، منزعجاً

من أمـــه او من آنسيل فليس ذلك ليقذف في وجهها بفضائلها البورجوازية باعتبار انها وحشية وسخيفة بل ليتباهى بالرذيلة وليصيح بهما عالياً بأنـــه رديء وبأنه يستطيع ان يكون اكثر رداءة ايضاً

« هل تعتقدين اذن انني لا استطيع اذا شئت ان أسبب خرابلك وأن أرمي بشيخوختك في البؤس ؟ ألا تعرفين أن لدي ما فيه الكفاية من الحيلة والفصاحة لأفعل ذلك ؟ لكني أمسك نفسي [1]

انه لا يستطيع الا بشعر والا يحس الا اذا اتخذ موقفهما وتصرف كطفل مستاء يضرب الارض بقدميه ويشتط في اخطائه ويقدّم لهـــما ضمانات ويزيد في تفاقم وضعه لكنه يعاند انما باسم تلك القيم ان ينال الغفران ، وهو يفضل ان يدان باسمها عـــلى ان تبيض صفحته باسم اخلاق ارحب واخصب عليه ان يخترعها بنفسه . وموقفه ، اثناء المحاكمة اشد غرابة ايضاً انه لا يحاول ولا مرة واحدة أن يدافع عن مضمون كتابه لا يحاول ولا مرة واحـــدة ان يشرح للقضاة بأنه لا يقبل بأخلاق الشرطة والمدّعين العامين بل انه على العكس يطالب بها وإنما على هذا الاساس يريد ان يناقش وبدلاً من ان يشكك في صحة اساس نواهيهم يقبل بالعار السري عـــار الكذب وإخفاء معنى كتابه انه يمثله بالفعل تارة

١ — رسالة ١٧ آذار ١٨٦٢

كتسلية ويطالب باسم الفن للفن بحق تقليد الاهــواء من الخارج دون ان يشعر بها هو نفسه وتارة يقرر انــه كتاب بنّاء يهدف الى اثارة الاشمئزاز من الرذيلة وانما بعد تسعة اعوام يجرؤ على الاعتراف لآنسيل

هل ينبغي ان اقول لك ، انت الذي لم يفهم الكتاب اكثر من الآخرين اني وضعت قلبي كله في هذا الكتاب الفظيع وكل حناني وكل ديني (المتنكر) وكل حقدي ؟ صحيح انني سأكتب عكسه وسأحلف بــالحي الكبيرة بأنه كتاب من كتب الفن الخالص من كتب الشيطنة والشعوذة وسأكذب كما يكذب قلاّع الأضراس[١]» .

لقد تركهم يحكمون عليه ورضي بقضائه بل كتب الى الامبراطورة بأن العدالة قــد عاملته بمجاملة لطيفة بل اكثر من ذلك لقد طالب بإعادة الاعتبار اليه اجتماعياً ، فطلب الصليب اولاً ، ثم الاكاديمية . لقد وقف الى جانب جلاديه آنسيل اوبيك شرطة الامبراطورية والاكاديميين ضد جميع من تمنّوا تحرير البشر ضد جورج صاند وضد فيكتور هيغو لقد طلب سوطهم وطالب بأن يرغموه بواسطة الإرهاب على ممارسة الفضائل التي يمجّدونها اذا ما تعود الانسان على الكسل والحلم والبطالة ، الى حد يؤجل معه بلا انقطاع ما هو مهم الى الغد واذا ما ايقظه انسان آخر ذات

١- رسالة ١٨ شباط ١٨٦٦

صباح بجلدات قوية من سوطه وجلّده دونما رحمة حتى يضطر ذلك الانسان الذي لا يستطيع ان يشتغل بلذة الى ان يشتغل بدافع الخوف أفلن يكون ذلك الانسان الآخر — الجلاد — صديقه المحسن اليه حقاً ؟

لقد كانت تكفيه حادثة تافهة لفتة فكرية نظرة خاطفة يلقيها الى تلك الاصنام ، كيما تتساقط قيوده فجأة لكنه لم يفعل ذلك وقبل طوال حياته بأن يحكم وبأن يتركهم يحكمون على اخطائه من خلال المعيار المشترك وانما هو الذي كتب ذات يوم هو الشاعر الملعون الذي نظم القصائد الممنوعة

كان لا بد في كل الازمان ولدى جميع الأمم من وجود آلهة وانبياء ليعلّموا الفضيلة للانسانية الحيوانية و الانسان بمفرده كان ليستطيع ابداً ان يكتشف الفضيلة

هـل نستطيع ان نتخيل استقالة كلية كهذه ان بودلير يعلن انه ما كان يستطيع ان يكتشف الفضيلة بمفرده. ان نفسه لا تشتمل حتى ولا على جرثومة منها بل انه ما كان ليعرف معناها لو انــه تُرك لنفسه ان الصفة الاساسية لهذه الفضيلة التي يُعلنها الانبياء وتُلقّن بالقوة بواسطة سوط الكهنة والوعاظ هي ان تكون بعيدة عن سلطة الافراد ان هؤلاء الافراد مــا كانوا يستطيعون ابتكارها ولا يستطيعون ان يشككوا فيها : فليكتموا إذن

بتلقيها كمن من السماء

ان القراء سيلقون التبعة بلا ريب على تربيته المسيحية ومما لا شك فيه انها قد وسمته بميسمها القوي لكن لننظر الى الطريق الذي سار فيه ذلك المسيحي الآخر اندريه جيد، وإن كان بروتستانتياً لقد وقف في الصراع الاصلي القائم بين شذوذه الجنسي والاخلاق الشائعة الى جانب الاول ضد الثانية وقرض شيئاً فشيئاً كحامض من الحوامض المباديء الصارمة التي كانت تقف في وجهه. لقد سار نحو اخلاقه هو من خلال الف عثرة وسقطة، وبذل جهده ليخترع لوحة جديدة للشريعة ومع ذلك كانت الدمغة المسيحية لديه لا تقل قوة عما هي لدى بودلير لكنه كان يريد ان يتحرر من «خير» الآخرين وكان يرفض ان يتركهم يعاملونه من البدء كنعجة جرباء. وبدءاً من «موقف مشابه لموقف بودلير، اختار غير ما اختار بودلير واراد ان يكون مرتاح الضمير وفهم بأنه لن يتحرر إلا عن طريق ابتكاره الجذري والمجاني للخير والشر فلمَ تراجع بودلير، الذي وُلد خلاقاً والذي كان شاعر الخلق في اللحظة الاخيرة ؟ لمَ استهلك قواه ووقته في الحفاظ على المعايير التي تجعل منه مجرماً ؟ كيف يسخط على انعدام الارادة المتمثلة فيه الذي حكم من البداية على وعيه وعلى ارادته بأن يظلا ابداً وعياً خبيثاً وارادة خبيثة ؟

لنعد الى ذلك التمايز المشهور إن الفعل الخلاق لا يسمح بالتمتّع به فمن يخلق ينتقل ، اثناء زمن الخلق، ومتجاوزاً التفرد الى سماء الحرية الصافية انه لا يعود شيئاً بل هو يفعل ومما لا ريب فيه انه يبني خارج ذاته فردية موضوعية لكنه حين يشتغل فيها لا تتميز عنه وفيما بعد لا يعود يستطيع الدخول فيها بـل يلبث واقفاً امامها شأنه شأن موسى عند مشارف الارض الموعودة وسنرى فيما بعد ان بودلير كتب قصائده ليجد فيها من جديد صورته لكنه مـا كان يستطيع ان يقنع بها انما في حياته اليومية كان يريد ان يتمتع بغيريته ان الحرية الكبيرة الخلاقة للقيم تبرز في قلب العدم انها تخيفه ان عـدم اللزوم وعدم امكانية التبرير والمجانية تحاصر بلا كلل من يحاول ان يوجد في العالم واقعاً جديداً وبالفعل اذا كان هذا الواقع جديداً كل الجدة فليس ثمة من شيء يطالب به ، وليس ثمة أي انسان ينتظره على الارض وسيبقى زائداً شأنه شأن صانعه

انما في قلب العالم القائم الراسخ الدعائم يؤكد بودلير تفرده ولقد طرح هذا التفرد اولاً ضد أمه وزوج أمه في حركة تمرد وحنق لكن المسألة على وجه التحديد هي مسألة تمرد لا مسألة فعل ثوري ان الثوري يريد ان يغير العالم ، ويتجاوزه نحو المستقبل نحو نظام للقيم يخترعه بنفسه . اما المتمرد فيهتم بالحفـاظ على الاستغلال الذي

يشكو منه دونما تغيير كيما يستطيع ان يتمرد ضده إن فيه دوماً عناصر سوء نية وما يشبه الشعور بالاثم انه لا يريد لا ان يهدم ولا ان يتجاوز بل ان ينتصب فقط ضد النظـــام وكلما شدد الهجوم عليه ازداد احترامه له بشكل غامض والحقوق التي ينقضها في وضح النهار يحافظ عليها في دفين قلبه ذلك انها اذا ما اضمحلت، فإن داعيه للوجود والتبرير سيضمحل معها وسيجد نفسه على حين غرة غارقاً في مجانية تخيفه ان بودلير لم يفكر قط بهدم فكرة الأسرة بل على العكس اننا نستطيع ان نقول انه لم يتجاوز قط مرحلة الطفولة

ان الطفل يعتبر أهله آلهـــة وافعالهم شأن احكامهم مطلقة انهم يجسدون العقـــل الكوني القانون معنى العالم وهدفه وحين توجه هذه الكائنات الآلهية نظرتهـــا اليه فإن هذه النظرة سرعان ما تبرره حتى في اعمـــاق وجوده انه يعزو اليها صفة محددة ومقدسة فمـــا دام من غير الممكن ان يخطئوا فإنه كما يرونه وليس من مكان في روحه لأي شك لأي تردد يقيناً انه لا يلتقط من نفسه الا وراثة مزاجه المبهمة لكن ثمة آلهة جعلوا من انفسهم حراساً لماهيته الازلية وهو يعلم ان هذه الماهية موجودة مع انه لا يستطيع ان يعرفهـــا ويعلم ان حقيقته لا تكمن في ما يمكن ان يعرفه عن نفسه، بل تختبىء في تلك العيون الكبيرة الرهيبة والعذبة التي تلتفت

نحوه   انها ماهية حقيقية وسط ماهيات حقيقية   وإن له مكانه في العالم ـ مكاناً مطلقاً في عالم مطلق   كـل شيء مليء، كل شيء عادل؛ وكل ما هو كائن كان ينبغي ان يكون. ولم يكف بودلير عن التحسر عن تلك الجنات الخضر التي يخلقها الحب الطفولي   لقد عرّف العبقرية بأنها   الطفولة التي يستعيدها الانسان بإرادته   ان الطفل في رأيه « يرى كل شيء بعين الجدة   انه دوماً سكران ». لكنه يغفل عن ان يذكر لنا ان هذه السكرة من نوع خاص جداً   ان كل شيء   بالفعل   جدة بالنسبة الى الطفل، لكن هذا الجديد قد سبق لآخرين ان رأوه وسموه وصنفوه   ان كل موضوع يمثُل امامه مع بطاقته   انه مطمئن ومقدس الى ابعد الحدود ما دامت نظرة الاشخاص الكبار لا تزال ترين فوقه   إن الطفل ابعد ما يكون عن استكشاف مناطق مجهولة   هل هو يقلب ألبوماً للصور، ويحصي النباتات المخصصة للدرس   ويقوم بجولة المالك وبودلير انما يحن الى امان الطفولة المطلق هذا   والمأساة تبدأ حين يكبر الطفل   ويتجاوز اهله برأسه وينظر من فوق اكتافهم   والحال انه لا وجود لشيء خلفهم   انه يقوم بتجربة صبوته الخاصة   حين يتجاوز اهله   وربما حين يحكم عليهم   ويتضاءل حجم ابيه وأمه   وها هما نحيفان متواضعان   غير مبررين وغير قابلين للتبرير وتسقط تلك الافكار الجليلة التي كانت تعكس العالم الى

..راء الأراء والامزجـــة ويتوجب في الوقت نفسه ان يعاد صنع العالم وتنطرح جميع امكنة الاشياء بل حتى ترتيبها على بساط البحث ويفقد الطفل ماهيته وحقيقته، باعتبار ذلك العقل الألآهي بات لا يعدله وباعتبار ان النظرة التي كانت تحدده قد باتت مجرد نـــور ضئيل بين العديد من الانوار الاخرى وتصبح الأمزجـــة المبهمة والافكار الغامضة التي كانت تبدو له في الماضي انعكاسات متكسرة عن واقعه الميتافيزيقي اقول تصبح عـــلى حين غرة طريقته الوحيدة في الوجود وتختفي دفعة واحـــدة الواجبات والطقوس والالتزامات الواضحة المحددة ويقوم، بعد ان اضحى غير مبرر وغير قابل للتبرير بتجربـــة حريته الرهيبة إن عليه ان يبدأ كل شيء من جديد انه يطفو فجأة في قلب العزلة والعدم

انما هذا ما لا يريده بودلير بأي ثمن إن اهله يظلون بالنسبة اليه اصناماً بغيضة ـــ لكنها اصنـــام انه يطرح نفسه تجاههم على اساس موقف الحقد لا موقف النقد. والغيرية التي يطالب بها لا تجمع بينها وبين العزلة الميتافيزيقية الكبرى التي هي قسمة كـــل انسان اي سمة مشتركة وبالفعل ان قانون العزلة يمكن ان نعبر عنه على النحو التالي ما من انسان يستطيع ان يلقي على عاتق الآخرين تبرير وجـــوده وهذا على وجه التحديد مـــا يخيف بودلير . ان العزلة تبعث في قلبه الذعر وهو يذكرهـــا

مئة مرة في رسائله الى امـه ويسميها « فظيعة » ، « باعثة على اليأس » ويروي آسولينو انه ما كان يستطيع ان يبقى ساعة واحدة بدون صحبة احد ومن المفهـوم هنا ان المقصود بذلك ليس الانعزال المـادي بل ذلك

العوم في العدم الذي هو ثمن الوحدانية انه يطالب بأن يكون شخصاً آخر يقيناً لكن آخر بين آخرين . وغيرته المترفعة تظل رابطة اجتماعية مـع من يحتقرهم ، ولا بد من ان يكونوا موجودين كيما يتعرفها وهذا مـا يشهد عليه ذلك المقطع الغريب من « صواريخ » حين أكون قـد اوحيت بالقرف والاشمئزاز العام أكـون قـد انتصرت على العزلة » واذا مـا شعرنا بالقرف ، بالاشمئزاز تجاه بودلير فهذا معناه اننا ما زلنا نهتم به بل معناه اننا نهتم بـه كثيراً تصوروا الاشمئزاز ! واذا كان هذا القرف وهـذا الاشمئزاز عالميين فهذا افضل ايضاً فمعنى ذلك ان كل الناس، في كل لحظة يهتمون به ان العزلة كما يفهمها ، هي اذن وظيفة اجتماعية فالمنبوذ مستبعد من المجتمع ، لكن عزلته مقدسة لأنه على وجه التحديد موضوع فعل اجتماعي بل انه ضروري لسير المؤسسات سيراً حسناً ويطالب بودلير على نحو مماثـل بأن يُكرَّس تفرده وان تُضفى عليه صفة شبه تأسيسية إن هذا التفرد بدلاً من ان يجرده من كل مكان في العالم ومن كل حق في مكان ، شأن العزلة الانسانية التي لمحها وطردها ، انما

بعين له على العكس مكاناً وينسب اليه التزامات وامتيازات وعلى هذا فإنه سيطلب من اهله الاعتراف بتفرده وهدفه الاول الذي هو معاقبتهم عن طريق إبانته لهم مدى غلطتهم سيبلغه حين يكون قد جعلهم يلاحظون الهجران الذي تركوه فيه والوحدانية المحتقرة والمحتقَرة التي يفخر بها إن عليه يوحي بالاشمئزاز الى اهله وهذا الاشمئزاز الذي يستولي على الآلهة امام خليقتهم سيكون في آن واحد معاً عقابهم وتكريسه وقد نميل الى ان ننسب اليه عقدة اوديبية لمّا تُصفَّ بعد لكن ليس من المهم ان يكون قد اشتهى أمه ام لم يشتهها. وإني سأقول بالأحرى انه رفض ان يصفّي العقدة اللاهوتية التي تمثل الاهل على انهم ألوهيات وسبب هذا راجع الى انه اضطر ،كي يتمكن من مراوغة قانون العزلة وكي يجد لدى الغير علاجاً ضد المجانية ، ان يعزو الى الآخرين، الى بعض الآخرين صفة مقدسة إن ما يتطلبه ليس هو بالصداقة ولا بالحب ولا بعلاقات الند للند فلقد عاش بدون اصدقاء اللهم إلا بعض الندمان الصعاليك. انه يطلب قضاة كائنات يستطيع ان يضعها بإرادته خارج قانون عدم اللزوم الأصلي كائنات موجودة ، باختصار ، لأن لها الحق في الوجود ، تضفي عليه تشريعاً تُها « طبيعة » ثابتة ومقدسة بدوره انه يرضى بأن يروا فيه مجرماً . مجرم في نظرهم اي مجرم بشكل مطلق . لكن

للمجرم وظيفته في عالم ثيوقراطي له وظيفته وحقوقه إن له الحق في اللوم ، في العقاب في التوبة انه يسهم في النظام الكوني وغلطته تضفي عليه كرامة دينية ، مكاناً متفرداً في تسلسل مراتب المخلوقات انه في مأمن تحت مظهر كائن رحيم او غاضب. لنُعد قراءة المارِدة »

كنت أود لو اعيش بجانب ماردة شابة
كما يعيش القط الملتذّ عند قدمي ملكة

إن أعز امنية على قلبه هي ان يجذب اليه نظر ماردة، ان يرى نفسه بعيني هـــذه الاخيرة كحيوان أليف ان يعيش حياة متراخية ملتذة وداعرة حياة قط في مجتمع ارستقراطي فيه مردة ، بشر ـ آلهة قرروا له وبدونه معنى العالم والغايات النهائية لحياته انه يـــود لو يتمتع بالاستقلال المحدود لحيوان مترف لا يعمل ولا ينفع ، يجد لألعابه الحماية في جدية أصحابه ومن المؤكد انـــا سنرى في هذه الأمنية آثاراً من المازوخية وبودلير نفسه كان سيصفها بأنها شيطانية لأنه يطلب فيها صراحـــة ان يتشبه بحيوان أو ليس هو بالضرورة مازوخياً بقدر مـــا تقوده حاجته للتكريس الى السعي ليكون موضوعاً في نظر الوجدانات الكبيرة الصارمـــة ؟ إن البعض سيلاحظون بلا ريب ان بودلير يتحسر على وضع الرضيع الذي تغسله وتطعمه وتلبسه أيادٍ قوية وجميلة اكثر من تحسره على وضع القط . ومثل هذه الملاحظة صائبة . لكن هذا غير

ناتج عن لست ادري اي حادث ميكانيكي يمكن ان يكون قد اوقف تطوره ولا عن مضاعفات صدمة لا يمكن بالأصل اثبات وجودها فهو اذا كان يتحسر على طفولته الاولى ، فهذا لأنهم انزلوا عن كاهله آنذاك هم الوجود، وهذا لأنه كان بشكل شامل ومترف موضوعاً في نظر راشدين كلهم حنان وتأنيب عذب وحب ، هذا لأنه كان يستطيع آنذاك — وآنذاك فقط — ان يحقق حلمه في ان يشعر بأنه متدثر كله بنظرة

لكن لكي يكون الحكم الذي يعيّن لبودلير مكانه في العالم بدون استئناف ينبغي قبل كل شيء ان تكون الدوافع التي يستلهمها مطلقة وبتعبير آخر ان بودلير ، في الوقت نفسه الذي يرفض فيه أن ينقض صفة حكامه المقدسة ، يرفض ان يضع موضع سؤال فكرة الخير التي يبنون عليها احكامهم واذا كان لا بد ان يكون مذنباً بشكل مطلق ، واذا كان لا بد ان يكون تفرده ميتافيزيقياً، فينبغي ان يكون هناك خير مطلق وهذا الخير ليس بالنسبة له لا موضوع حب ولا آمراً مجرداً فحسب انه يختلط بنظرة نظرة تأمر وتدين لقد قلب الشاعر العلاقة التي يقبل بها عامة الناس فليس القانون هو الاول في نظره بل الحاكم وبعد هذا أتكون النظرة التي تخترقه ، التي تضعه في مكانه وتضفي عليه الصفة الموضوعية، النظرة الكبرى « حاملة الخير والشر » ، نظرة امه ،

ام الجنرال اوبيك ام الله الذي يرى كل شيء ؟
كله واحد بودلير يعلن إلحاده في « فانفارلو »
التي ظهرت عام ١٨٤٧ كما كان تقياً بعنف صار
ملحداً بهوس يبدو اذن انه فقد الايمان بعد شباب
متأجج وصوفي ولا انه استعاده فيما بعد إلا اثناء
ازمته عام ١٨٦١ ولقد كتب الى آنسيل في اواخر
سني حياته الواعية في ١٨٦٤

سوف اعبر بصبر عن جميع اسباب قرفي من
الجنس البشري وحين سأصبح وحيداً بشكل مطلق
فسأبحث عن دين وفي لحظة الموت سأجحد هذا
الدين الاخير لأظهر قرفي من الحماقة الكونية اناك ترى
انني لم اتغير

يبدو اذن ان النقاد الكاثوليكيين متهورون حين يزعمون
انه واحد من انصارهم لكنه اسواء آمن ام لم يؤمن
فهذا شيء ضئيل الأهمية واذا كان لا يعتبر وجود الله
حقيقة واقعة فلقد كان هذا الوجود على الاقل اشبه
بقطب يستقطب احلام يقظته الخيالية لقد كتب في
« صواريخ

« حتى عندما لا يعود الله موجوداً فإن الدين سيظل
مقدساً والهياً

« ان الله هو الكائن الوحيد الذي لا يحتاج الى الوجود
ليسود .

اذن فالأهم من الوجود العاري هو طبيعة هذا الكائن الفائق القوة ووظائفه والحال ان علينا ان نلاحـــظ ان إلآه بودلير رهيب انه يرسل ملائكته لتعذيب الخطأة وشريعته هي « العهد القديم » ولاشفيع بينه وبين البشر: يبدو ان بودلير قد جهل المسيح ويلاحظ جان ماسان نفسه هذا الجهل المأساوي بالمخلّص[1] ذلك انه لم يكن يبالي بالخلاص بقدر ما كان يهمّ بالحكم ، وبالاحرى إن الخلاص هو في الحكم بالذات الذي يعيّن لكل انسان مكاناً في عالم منظم وحين تشكّى بودلير من انه لا يؤمن ، فإنه انما كان يأسف على الشاهد والحاكم « انني اريد من كل قلبي ان اؤمن بانه ثمة كائن خـارجي ولا مرئي يهتم عصيري لكن مـا السبيل الى الايمان بذلك[2] ؟» . إن ما يفتقر اليه ليس هوالحب الالهي ولا النعمة، بل تلك النظرة الصافية و« الخارجية » التي ستطوقه وتحمله. وهذه هي ايضاً وجهة النظر التي يتبناها في « قلبي العاري » عندمـــا يقدّم هذا البرهان العجيب على الوجود الالهي

حساب في صالح الله لا شيء موجود بدون هدف فوجودي له هدف اذن اي هدف ؟ اجهل ذلك لست انا اذن الذي اعطي وجودي صفته الخاصة انـــه اذن كائن اكثر مني علماً علي اذن ان ابتهل الى هذا الكائن

---

١ – جان ماسان « بودلير امام الالم » ص ١٩ .

٢ – رسالته الى أمه في ٦ ايار ١٨٦١

الكائن كي ينيرني هذا هو الموقف الحكيم»

اننا لنجد في هذا المقطع التأكيد العنيد على وجود نظام مسبق من الغايات وبودلير يكشف فيه مرة اخرى عن رغبته في ان يأخذ مكانه في هذا التسلسل بواسطة نظـرة خالق ما لكن هذا الالآه الذي لا يعرف المحبة إلآه العدل هذا الالآه الذي يجازي وسوطه مبارك الالآـه الذي لا يعطي ولا يطلب الحب ، انه لا يتميز عن الجنرال اوبيك ذلك الاب الآخر الذي كان يستعمل السوط هو ايضاً والذي كان يوحي لابن زوجته بخوف كريه ولقد زعم البعض بكل جد ان بودلير كان يعشق الجنرال اوبيك وبالطبع ليس هناك من داعٍ لدحض مثل هذه السخافات لكن المهم هو انه كان يطلب تلك القسوة التي شكا منها طوال حياته ولقد كان دور الجنرال بالـغ الاهمية في عملية عقاب الذات التي سنتكلم عنها فيما بعد وصحيح ايضاً ان اوبيك الرهيب قد تقمّص، على ما يبدو عند موته جسد والدة الشاعر لكن الحالة هنا شديدة التعقيد ان السيدة اوبيك هي بلا ريب الكائن الوحيد الذي شعر بودلير نحوه بالحنو انها مرتبطة ابداً في نظره بطفولة وديعة وحرة وهي تذكره بذلك من حين لآخر بكآبة «لقد عرفت طفولتي فترة حب هائم بلك اسمعي واقرئي بدون خوف لم يسبق لي ان قلت لك هذا كله انني اذكر نزهة في العربة كنت خارجة من المستشفى حيث

كانوا قد القوا بك وأريتني لتثبّي لي انك فكرت بابنك رسوماً رسمتها بالريشة لي أتصدقين انني املك ذاكرة رهيبة ؟ وفـيما بعد ساحة سانت ـ اندريه ـ دي زار ونويي. ما اطولها من نزهات ، وما أخلدها من مداعبات! انني اذكر الارصفة التي كانت كئيبة للغاية مساء آه! كانت تلك ايام الحنو الوالدي كنت دوماً حياً فيك كنت لي وحدي كنت معبوداً ورفيقاً في آن واحد لقد احبها بلا ريب كأمرأة اكثر مما احبها كأم حين كان الجنرال ما يزال حياً كان يهوى ان يضرب لها مواعيد زانية في المتاحف وفي آخر فترات حياته كان يحدث له ان يستعمل معها لهجة غزل لطيف ومحبب: (في هونفلور) لن اكون سعيداً هذا مستحيـل لكن سأكون مطمئناً مما فيه الكفاية لأكرس نهاري كله للعمل ومسائي كله لتسليتك ومغازلتك وهو بالاصل لا يتعلل بالاوهام بصددها طائشة وعنيدة ذات نزوات «عجيبة» لا تتمتع بأي ذوق وطبعهـا «متقلب وكريم في واحد» وتؤمن ايماناً اعمى بأول قادم اكثر مما تؤمن اوبيك نقل اليها عدواه شيئاً فشيئاً لقد صبغها بصرامته وبعد موت زوجهـا عادت ، بالرغم منها الى دورها الساحق كقاض ذلك ان بودلير بحاجة مطلقة الى شاهد غير انها لا تملك لا

---

١ : من رسالته في ٢٦ اذار ١٨٦٠

القوة ولا الرغبة في معاقبته لكنه يرتعد دوماً امام هذه المرأة الصغيرة التافهة التي يعرفها عن ظهر قلب انه يعترف لها عام ١٨٦٠، وقد اشرف على الاربعين من العمر: «ينبغي ان تعلمي شيئاً لم تدركيه قط على الارجح، ألا هو انك توحين الي بخوف عظيم جداً» انه لا يجرؤ على الكتابة اليها حين «لا يكون راضياً عن نفسه»، ويحمل في جيوبه طوال ايام كاملة الرسائل التي تبعث بها اليه دون ان يجرؤ على فضها «خوفاً احياناً من توبيخاتك وخشية ان اقرأ أنباء محزنة عن صحتك احياناً اخرى لا اجرؤ على فض رسائلك اني لست شجاعاً امام رسالة انه يعلم ان هذه التوبيخات ظالمة، عشواء، غير معقولة، وانها توجهها تحت تأثير آنسيل او جارها في هونفلور، او كاهن يكرهه غير مهم فهي بالنسبة له ادانات لا استئناف فيها لقد قلدها رغماً عنها مطلق السلطة في الحكم عليه وحتى لو نقض دوافع الحكم واحداً فواحداً فإن نص الحكم لن يتغير قيد انملة لقد اختار ان يرمي بنفسه امامها في موقف المذنب رسائله اعترافات على الطريقة الروسية ولما كان يعلم انها تلومه فقد كان يجهد عبقريته في تقديم الاسباب اليها ويزيدها امكنه لكنه كان حريصاً بوجه خاص على ان ينقذ نفسه في نظر امه ولقد كان امله الدائم ان يأتي يوم تعدل فيه حكمها عليه. وفي الحادية والاربعين

من العمر اثناء ازمة ورعه وتقواه كان يتضرع الى الله ان «يعطيه القوة الضرورية ليتمم جميع واجباته وان يهب والدته حياة طويلة بما فيه الكفاية لتتمتع باهتدائه» وكثيراً ما يتردد هذا الرجاء في مراسلاته وانا لنشعر ان له اهمية بالغة وميتافيزيقية ان ذلك الحكم النهائي الذي ينتظره هو تكريس حياته واذا ماتت امه دون ان يتم هذا الاحتفال فإن حياة بودلير لن يعود لها من معنى، وستستمر على غير هدى، وستستولي عليها فجأة المجانية المريعة التي يدفعها عنه بكل قواه لكن اذا ما اعلنت ذات يوم على العكس انها راضية فإنها ستكون قد وسمت بميسمها هذا الوجود المعذب ويكون بودلير قد حقق خلاصه لأن ضميره الهائم الكبير قد ارتاح

لكن هذه الصرامة التي تتجرد احياناً حتى لا تعود إلا نظرة الله الصافية والتي تتجسد احياناً اخرى في جرال، او في امرأة عجوز سخيفة تستطيع ايضاً ان تتخذ اشكالاً اخرى فتارة ستحل كرامة غير منتظرة على قضاة نابوليون الثالث وتارة اخرى على اعضاء الاكاديمية الفرنسية لقد زعموا ان بودلير فوجىء بإدانة ازهار الشر» هذا غير صحيح فقد كان يتوقع ذلك، ورسائله الى بوليه مالأسي تثبت ذلك بل يمكننا القول انه كان يسعى اليها .وكذلك فإنه حين تقدم بترشيحه الى الاكاديمية ، كان يتمنى قضاة اكثر مما يتمنى ناخبين

باعتبار انه كان ينتظر ان يكون تصويت «الخالدين»
اعادة اعتبار له لقد اصاب فرانسوا بورشيه حين كتب:
لقد فكر بودلير اذن بأنه اذا ما تخطى عتبة الاكاديمية فإن الريبة التي تحيط به ستنتهي حالاً هذا بديهي لكن هذه المحاكمة المنطقية تحتوي على حلقة مفرغة باعتبار ان هذه الريبة كانت هي التي تقضي على كل حظ للشاعر في النجاح» ولقد اختار بودلير، وقد غيظ من ثرثرات آنسيل الذي كانت طيبة قلبه تمنعه من ان يأخذ مكانه في رواق القضاة اختار بدافع من نزوة مستشاراً آخر شخصاً يدعى السيد جاكوتو وهو يعرب عن سروره بذلك «انه يبدو لي بظرافته وحبه للهو كرجل حكيم فهو على الاقل يملك حس قواعد اللياقة ولقد اثبت هذا في ذلك الاستجواب الطويل لكن الودي الذي حملني عليه» انه يعترف اذن بأن السيد جاكوتو يخاطبه باللهجة التي يحب والحال لنقرأ كيف يعبر هذا السيد جاكوتو عن رأيه ببودلير في رسالة الى السيدة اوبيك

انه هادىء للغاية الآن، وقد جعلته يحس بعدم لياقة ذلك السلوك تجاه صديق محترم وصديق والدته لكنه اصر مع اعترافه بأخطائه على انه لا يريد ان تكون له علاقات به انني اؤمن بصدقه لأن من مصلحته ان يحسن التصرف وألا يوقعك لا انت ولا أنا في الخطأ».

---

١ : اعضاء الاكاديمية الفرنسية «المترجم»

انّنا مرغمون اذن على الاستنتاج بأن بودلير كان يحب هذه اللهجة التي ترشح بالحماية والرعاية بل انه هو نفسه يشرح لأمه بنوع من الغطرسة انه قد وُبخ فهو يقول لها

«لقد بدأ السيد جاكوتو بتأنيبي بحدة على عنفي...»

ويضيف

«سألني السيد جاكوتو اذا كنت على استعداد لأن اضع نفسي تحت نوع من المراقبة من جانبه فيما اذا حل محل آنسيل فقلت له انني على اتم الاستعداد

وها هوذا سعيداً لأنه غيّر سيره وهكذا وما دام صحيحاً ان كل انسان يصنع مصيره على صورته فإن بودلير الذي اختار من البداية ان يعيش تحت الوصاية، قد وجد في قدره منتهى امله فلقد كان وجود مجلسه العائلي مصدر اذلال وحرج لامتناه بالنسبة اليه ولقد ابغضه بصدق كبير لكن هذه المحكمة كانت ضرورية لهذا الهاوي للسوط والقضاة وكانت تشبع لديه حاجة ولهذا فعلينا ألا نرى فيها حادثاً مؤسفاً وقف عقبة امام مستقبله بل صورة صحيحة لصبوات الشاعر وجهازاً ضرورياً لتوازنه وبفضل هذه المحكمة كان دوماً في حالة تبعية دوماً في الاغلال وطوال حياته كان لأولئك الرجال الوقورين المهيبين الذين يسميهم كافكا

«سادة» كان لهم الحق في ان يكلموه بلهجة الصرامة الابوية ولقد اضطر الى ان يتسول المال كطالب مبذر، ولم يحصل على شيء منه إلا بفضل رعاية اولئك «الآباء» العديدين الذين وهبه اياهم القانون لقد كان ولداً قاصراً ابدياً مراهقاً هرماً، وعاش عيشة حنق وكراهية، لكن تحت حراسة الغير الحازمة المطمئنة

ولكأني به لم يكتف بجميع هؤلاء الاوصياء والاولياء وبجميع اولئك السادة الذين كانوا يقررون فيما بينهم مصيره، فاختار وصياً سرياً اشدهم قسوة جميعاً اعني بـه جوزيف دي ميستر الذي كان آخر تجسد للغير فقد قال عنه «انه هو الذي علمني التفكير» وبالفعل ألا نحتاج كيما يشعر بالارتياح تماماً الى ان يحتل مكاناً محدداً في التسلسل الطبيعي والاجتماعي ؟ ان هذا المفكر المتزمت والمرائي سيعلمه حجج المذهب المحافظ الساحرة ذلك ان كل شيء مترابـط اذن لا بد من نخبة من الجلادين في ذلك المجتمع الذي يريد ان يكون ابنه الرهيب: «إن القديس الحقيقي في السياسة هو الذي يجلد ويقتـل الشعب لخير الشعب» ولا ريب في انه كتب هذه الجملة تحت سيطرة قشعريرة اللذة ذلك انه اذا كان السياسي يقتل الشعب باسم خير الشعب فإن الخير يزداد ابتعاداً

---

١ كاتب وفيلـسوف فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٢١) كان من دعاة الملكية والبابوية، وعدوا لدودا للثورة الفرنسية «المترجم»

عن كل متناول يا له من أمان ما دامت الضحيـــة محرومة من التقرير بنفسها ويقال لها في ذروة آلامهـــا انها انما تموت من اجل خيرها ذلك الخير الذي تجهله وينبغي ايضاً ان يتوطد مسبقاً التسلسل الاشد حزماً وان يكون الجلادون حراساً عليه ولا بد اخيراً من امتيازات وتأنيبات لا تتأتى البتة من استحقاقات اكتُسبت بملء الارادة او من اخطاء متعمدة بل تثقل على العكس مسبقا كاللعنات ولهذا اعلن بودلير عداءه للسامية ان المسرحية قد اعدت: ولبودلير فيها مكانه الذي ينتظره إنه لن يكون جلاداً — فقوق الجلادين يوجد الفراغ والمجانية — بل سيجعل من نفسه — وبلذة عظيمة — اول المجلودين

لكن علينا ألا ننسى ان بودلير يعلن تأييده باقترافـــه الشر عن وعي ومن خلال وعيه المتخبط في الشر ان القانون الاخلاقي اذا ما استثنينا نوبات الحماسة المفاجئة ، وهي بالاصل عابرة وغير ناجعة لم يوجد في نظره إلا ليُنتهك انه لا يكتفي بأن يطالب بكبرياء عصير المنبوذ: بل ينبغي ان يرتكب الخطيئة في كل لحظة وانما ههنـــا تتعقد اوصافنا إذ يدخل عليها بُعدٌ جديد: بُعد الحرية

ذلك ان موقف بودلير ازاء تفرده ليس بسيطاً الى هذا الحد انه يطالب بمعنى ما بأن يتمتع به كما يستطيع الآخرون ان يفعلوا ذلك ، وهذا يعني انه يريد ان يقف امامه كما يقف امام الشيء انه يتمنى ان تجعله نظرتـــه

الداخلية يولد كما يولد بياض الشحرور الابيض في نظر سائر الشحارير ان على هذا التفرد ان يكون ههنا مستقراً موضوعاً مطمئناً على طريقة الماهية لكن كبرياءه لا تستطيع من جهة ثانية ان ترضى بأصالة سلبية مكتسبة لم تخلقها بنفسها انه يريد ان يكون قد صُنع على ما هو عليه ولقد رأيناه منذ طفولته يتحمل بحنق « انفصاله خوف ان يُفرض عليه ولقد توجّه بلا ريب لأنه لم يستطع ان يتوصل ذاتياً الى ما يمكن ان يجعله بلا نظير توجه الى الآخرين وسألهم ان يجعلوا منه شخصاً آخر عن طريق احكامهم لكنه لا يستطيع ان يقبل بأن يكون موضوع نظراتهم المحض وكما كان يريد ان يحول تدفق حياته الداخلية المبهمة الى موضوع ، فقد كان يحاول ان يحول صورة كشيء في نظر الغير الى صورة داخلية وذلك عن طريق تحويل ذاته الى مشروع حر وبذلك يكون جهده الدائم في الحقيقة منصبّاً على ان يستعيد نفسه وان يستعيد الانسان ذاته على صعيد الحياة الداخلية فهذا معناه يحاول ان يعتبر وعيه شيئاً حتى يستطيع ان يعانقه بسهولة لكن عندما تكون المسألة مسألة كينونتنا في نظر الاخرين فإننا نستعيد انفسنا اذا ما استطعنا ان ندمج الشيء بوعي حر وهذا التناوب الغريب ينبع من غموض مفهوم التملك فالمرء لا يملك نفسه الا اذا خلق ذاته ، واذا ما خلق ذاته افلت من نفسه ان

الشيء هو وحده الذي يُملك لكـــن كنا شيئاً في العالم فقدنا تلك الحرية الخلاقة التي هي اساس التملك . ثم إن بودلير الذي كان يملك حس الحرية ويحبها، خاف منها حين نزل الى لايقين وعيه لقد رأى انها تفضي بالضرورة الى الوحدة المطلقة والمسؤولية الشاملة انه يريد ان يهرب من قلق الانسان الوحيد الذي يعلم انه مسؤول عن الخير والشر دونما عون من العالم يريد ان يكون حراً هذا لا ريب فيه لكن حراً في اطار عالم جاهز الصنع وكما تدبّر نفسه ليصل الى وحدة مصحوبة ومقدسة، كذلك فإنه يحاول ان يعطي نفسه مسؤولية محدودة انه يريد ان يخلق نفسه بنفسه، هذا لا ريب فيه لكن على الصورة التي يراه بها الآخرون انه يكون هذه الطبيعة المتناقضة حرية — شيء انه يهرب من هـــذه الحقيقة المرهبة التي تنص على ان الحرية لا يحدّها شيء غيرُ نفسها! ويسعى الى الابقاء عليها ضمن اطر خارجية. انه يطلب منها ان تكون قويّ بما فيه الكفاية حتى يستطيع ان يطالب بالصورة التي يراه الآخرون بها على انها من صنعه وعلى هذا فإن مثله الاعلى ان يكون سبب نفسه، وهذا ما يُرضي كبرياءه، وان يكون في الوقت نفسه قد خُلق بمقتضى خطة الهية، وهذا ما يخفف من قلقه ويبرر وجوده انه بكلمة واحدة يطالب بأن يكون حراً وهذا يفترض ان يكون مجانياً وغير قابل للتبرير في استقلاله

بالذات وبأن يكون مكرساً وهذا يقتضي ان يفرض عليه المجتمع وظيفته بل حتى طبيعته

إن من يطلب حريته لا يؤكدها في عالم جوزف دي ميستر فالدروب في هـذا العالم مرسومة والاهداف محددة والاوامر صادرة وليس هناك إلا طريق واحد لرجل الخير الامتثالية والحال ان هذا يتمناه بودلير :
أفلا يحد الحكم الآلهي من حرية الانسان ويقصرهـا على اختيار الوسائل الكفيلة بالايصال الى غايات غير مناقشة ؟

لكنه من جهة اخرى يحتقر النافع والعمل والحال ان صفة النافع تطلق على كل فعل يتصرف بالوسائل بهدف بلوغ غاية محددة مسبقاً ولقد كان بودلير يملك من حس الخلق قدراً كبيراً لا يسمح له بأن يقبل بدور العالم المتواضع هذا وبهذا المعنى نستطيع ان ندرك هنا دلالة دعوته الشعرية فقصائده هي اشبه ببديل عن خلق الخير الذي حرمه على نفسه انها تظهر مجانية الوعي ، وهي غير نافعة على الاطلاق ، ويؤكد كل بيت منها ما يسميه هو نفسه ما فوق المذهب الطبيعي وتبقى في الوقت نفسه في عالم المخيلة ، ولا تمس على الاطلاق مسألة الخلق الاولي والمطلق. انها بمعنى ما منتجات بديلة وتمثل كل منها الاشباع الرمزي لرغبة مستقلة تمام الاستقلال لعطش الى الخلق بالمعنى الافلاطوني غير ان بودلير لا يستطيع ان يقنع بهذا النشاط المتستر المرائي وهكذا يجد نفسه في هـذا

الموقف المتناقض انه يريد ان يظهر حرية اختياره وذلك بأن لا يعمل إلا من اجل غايات هي غاياته لكنه يريد من جهة اخرى ان يقنع مجانيته ويحـــدد مسؤوليته بقبوله بالغايات التي فرضهـــا مسبقاً المجتمع الخاضع لمشيئة الله وهكذا لا يبقى غير طريق واحد لحريته اختيار الشر ولا نعني بالشر هنا قطف الثمار المحرمة رغم انها محرمـة بل لأنها محرمة فحين يختار انسان مـــن الناس الجريمة بدافع المصلحة ومن تلقاء ارادته فقد يكون مؤذياً او وحشياً لكنه لا يقترف الشر من اجل الشر اذ ليس في اعماقه اي استنكار لما يفعله والآخرون هم وحدهم الذين يستطيعون ان يحكموا عليه من الخارج بأنـــه شرير لكن لو اتيح لنا ان نتجول داخل ضميره لما وجدنا فيه غير لعب الدوافع التي قد تكون خشنة لكنها حتماً متوافقة اما اقتراف الشر من اجل الشر فهو على وجه التحديد ان نفعل عن عمد عكس ما نتابع التأكيد بأنه الخير ان نريد ما لا نريده ــ ما دمنا مستمرين في كراهية القوى الشريرة ــ وألا نريد ما نريده ــ ما دام الخير يتحدد دوماً على انه موضوع الارادة العميقة وغايتها. وهذا هو على وجه التحديد موقف بودلير فبين افعاله وافعال المجرم المبتذل الفرق الذي يفصل الطقوس السوداء عن الإلحاد ان الملحد لا يهتم بالله ، لأنه قرر مرة واحدة والى الابد انه غير موجود لكن كاهن الطقوس السوداء

يكره الله لأن الله محبب ويسخر منه لأن الله مبجل انه يجند ارادته لإنكار النظام الموطد لكنه في الوقت نفسه يحافظ على هذا نظام ويؤكده اكثر واكثر ولو كف لحظة واحدة عن تأكيده فإن ضميره سيعود على وفاق مع نفسه وسينقلب الشر دفعة واحدة الى خير ، وسيطفو هو على سطح العدم بلا إله بلا تبرير ، حاملاً على عاتقه مسؤولية شاملة ، بعد ان يكون قد تجاوز جميع الانظمة التي لا تنبثق منه والحال ان التمزق الذي يحدد الوعي من خلال الشر يتجلى بوضوح في النص الذي ذكرناه آنفاً عن المطلب المزدوج ان في كل انسان، في كل لحظة الحاحين متواقتين احدهما نحو الله ، والآخر نحو الشيطـــان وينبغي ان نـــدرك ان هذين الإلحاحين ليسا مستقلين — ليسا قوتين متعاكستين ومستقلتين متلاقيتين عند نقطة واحدة — بل علينا ان ندرك ان كلاً منهما مرتبط بالآخر فلكي تكون الحرية مدوخة فلا بد ان تختار ان تكون الى ما لا نهاية على خطأ في العالم الذي تحكمه ارادة الله وعلى هذا فإنها وحيدة في هذا الكون المنخرط كله في الخير لكن عليها ان تنتمي كلياً الى الخير وان تحافظ عليه وتدعمه كما تستطيع ان تلقي بنفسها في الشر ومـــن يحكم على نفسه باللعنة يكتسب عزلة اشبه بصورة مصغرة للعزلة الكبرى عزلة الانسان الحر حقاً . وانه بالفعل لوحيد وبقدر ما يريد ذلك ،

لا اكثر   ان العالم محافظ على نظامـــه   والغايات باقية
مطلقـــة غير ملموسة   والتسلل متماسك   يكفي اذن ان
يندم   ان يكفّ عن ارادة الشر حتّى تعود اليه كرامته
على حين غرة   انه يمحي مـــا يخلق   انه يظهر   في
عالم يضحي فيه كل عنصر بنفسه من اجل المساهمة في عظمة
المجموع   يظهر التفرد   اي تمرد جزء ما   او تفصيل
ما   ومن هنا يحدث شيء لم يكن له وجود سابقاً ، شيء
لا يمكن ان يمحوه شيء ولم يكن مهيأ من قبل نظام العالم
الحازم   انه عمل مترف ، مجاني وغير متوقع   ولنلاحظ
هنا علاقة الشر بالشعر   فحين يتخذ الشعر الشر موضوعاً
له   فإن كلا نوعي الخلق ذي المسؤولية المحددة يتلاقيان
ويندمجان   وبذلك نملك دفعة واحدة زهرة شر   لكن
الخلق المتعمد للشر ، اي الخطيئة ، هو قبول للخير واعتراف
به   انه تكريم له   وهو بإطلاقه صفة الشرير على نفسه
يعترف بأنه نسبي ومنحرف   وبأنه لولا الخير لما كان له
وجود   انه يساهم اذن   عن طريق غير مباشرة   في
تمجيد القاعدة   بل اكثر من ذلك   انه يعلن   عدم
فما دام كل ما هو كائن يخدم الخير   فالشر اذن غير
كائن   وكما يقول كلوديل   إن الاسوأ ليس اكيداً دوماً
ويشعر المذنب   غلطته هي في آن واحد تحد للكينونه ،
وخدعة لا تؤدي الى نتيجة باعتبار   انها تنزلق فوق الكينونة
دون ان تمسها بأذى   ان الخاطيء طفل رهيب لكن باطنه

صالح وهو يعرف ذلك انه يعتبر نفسه كالابن الضال الذي لن يكف والـــده ابداً عن انتظاره وهو برفضه النافع وبوقفه جهوده واهتماماته على اشياء شاذة لا فعالية لها يقبل بأن يعتبر مراهقاً يلعب بـــل إن هذا ما يمنحه في قلب رهبته بالذات اطمئناناً تاماً انـــه يلعب والحرية متروكة في ذلك وبكلمة واحدة إن حريته بالذات حريته في ارتكاب الشر قـــد منحت له هناك بلا ريب الديونة واللعنة الابدية لكن الخاطيء يتألم كثيراً ويحتفظ من خـــلال اخطائه بأحساس بالخير حاد للغاية حتى انه لا يشك في سيُغفر له ان الجحيم صالح للرذائل الكثيفة والراضية بنفسها لكن روح من يرتكب الشر للشر زهرة لذيذة إن مكانها الى جانب عامة المذنبين المبتذلين سيبدو شاذاً شذوذ وجود دوقة في سجن سان لازار الى جانب بنات الهوى وبالاصل ان بودلير الذي ينتمي الى ارستقراطية الشر هذه لا يؤمن بالله ايماناً كافياً ليجعله يخشى جهنم ان اللعنة بالنسبة له موجودة على هذه الارض ، وهي ليست نهائية بالمرة انها لوم الغير انها نظرة الجنرال اوبيك انها رسالة امه التي يجرها في جيبه دون ان يفتحها انها نصيحة الاسرة، انها ثرثرات آنسيل الرادعة لكن سيأتي يوم يساد فيه الدين وتستطيع امه ان تحله من خطاياه انه لا يشك في الغداء الاخير فمن المفهوم الآن اذن ان يريد قضاة

صارمين ان التسامح والغفران والتفهم ستضعف حريته بقدر ما تخفف من ذنوبه ها هوذا اذن شرير لقد اصاب جول لوميتر حين قال عنه لما كان لا شيء يعادل في الكثافة والعمق المشاعر الدينية (لكونها تحتوي على الرهبة والحب) ، لهذا فهو يستعيدها ويحييها في ذاته، في الوقت نفسه الذي يبحث فيه عن احساسات تدينها مباشرة المعتقدات التي تشتق منها هذه المشاعر وبذلك يتوصل الى شيء مصطنع الى حد معجز

مما لا ريب فيه بالفعل ان بودلير وجد لذة في اخطائه لكن لا بد ايضاً من شرح طبيعة هذه اللذة وبالفعل حين يضيف لوميتر ان البودليرية هي الجهد الاعظم للأبيقورية الفكرية والعاطفية فإنه يكون على خطأ كامل ان بودلير لم يكن يتطلع الى إذكاء نار لذاته عن عمد بل انه يستطيع ان يجيب على العكس بأنه قد سممها بل ان فكرة البحث الابيقوري عن اللذة بالذات هي ابعد ما تكون عنه لكن حين تقود الغلطة الى اللذة فإن اللذة تستفيد من الغلطة انها تبدو اولاً وكأنها مختارة من بين جميع اللذائذ الاخرى فما دامت محرمة فهي غير مجدية انها ترف لكنها علاوة على ذلك ولما كان السعي اليها ضد النظام لقائم قد تمّ من قبل حرية تحكم على نفسها باللعنة لتولدها ، فإنها تبدو شبيهة بالخلق .

١ - جول لوميتر : « يوميات نقاش » ، ١٨٨٧

ان اللذائذ الفظة التي هي مجرد اشباع للشهوات ، تقيّدنا بالطبيعة في الوقت نفسه الذي تجعلنا فيه مبتذلين لكن ما يسميه بودلير « تنعماً شيء ملذ نادر الوجود فما دام الخاطىء سيغرق في تأنيب الضمير في اللحظة التي تلي التنعم، فإن هذا التنعم سيكون لحظة الالتزام الوحيدة الممتعة انه سيجعل من نفسه ، عن طريق هذا التنعم ، مذنباً وحين يقع في اغراء التجربة فإن نظرة قضاته لا تغادره انـه يقترف الخطيئة علناً ويشعر في اللحظة التي يعرف فيها ذلك الاطمئنان القطيع الذي يوحي به اليه تحوله الى موضوع عن طريق الادانة الاخلاقية التي يستحق اقــول يشعر بكبرياء يولدها احساسه بأنه خلاق وحر إن هذه العودة الى الذات التي ترافق بالضرورة الغلطة تمنعه من ان يغرق حتى قلبه في اللذة انه لا يترك نفسه يغوص فيهـا الى درجة يفقد معها الحس بل على العكس انه انمـا يجد نفسه في التنعم اللاذع انه يكون ههنا بكليته ، حراً ومداناً خلاقاً ومذنباً ومتعته هذه بذاته تكون تمثابـة مسافـة تأملية بينه وبين لذته ان التنعم البودليري اشبه بتنعم ملجوم منظور اليه اكثر منه محسوساً لا يغرق فيه المرء ، بل يمسه مساً فهو ذريعة بقدر ما هو غاية. ان الحرية وتأنيب الضمير يضفيان عليه صفـة روحية والشر يصفيه ويفقده جوهره المادي. انني لأقول إن التنعم الوحيد الفائق في الحب يكمن في يقين الانسان انـه

يفعل الشر – والرجل والمرأة يعرفان من الولادة انه انما في الشر يوجد كل تنعم »

ونستطيع ان نفهم الآن لكن الآن فقط كلمة بودلير لقد شعرت وانا صغير بإحساسين متناقضين في قلبي الاشمئزاز من الحياة ونشوة الحياة

ينبغي هنا ايضاً ، ألا ننظر الى هذا الاشمئزاز وهذه النشوة وكأن احدهما مستقل عن الآخر ان الاشمئزاز من الحياة هو الاشمئزاز من الطبيعي الاشمئزاز من غزارة الطبيعة التلقائية والاشمئزاز ايضاً من ترددات الضمير الحية ثم انه الانتماء الى نزعة جوزيف دي ميستر المحافظة الضيقة وحبه للاكراهات والتصنيفات المصطنعة لكن نشوة الحياة سرعان ما تولد وقد كفلت لها جميع هذه الحواجز الحماية الكافية إن هذا المزيج البودليري من التأمل والمتعة ،هذه اللذة الروحانية التي يسميها تنعماً هما التطفل الحذر للشر حين يبقي الجسد بأكمله في المؤخرة ويعانق دون أن يطأ لقد قيل عنه إنه كان عنيناً ومما لا ريب فيه ان الامتلاك الجسدي ، القريب للغاية من اللذة الطبيعية لم يكن يجتذبه عما فيه الكفاية لقد قال محتقراً المرأة انها « في حالة تهيج وتريد ان توطأ وهو يعترف بأن المثقفين من امثاله كلما اقبلوا على الفنون قل انتصابهم وهذا ما يمكن ان يعتبر إقراراً لكن الحياة ليست هي الطبيعة . وهو يعترف في قلبي العاري » انه

« يحب الحياة واللذة حباً جماً اي الحياه المنظور اليها دوماً عن بعد والتي تعيد خلقها الحرية» وكذلك اللذة التي اضفى عليها الشر صفته الروحية ان لديه من الشهوانية اكثر مما لديه من المزاج هـذا اذا اردنا ان نعبر عن الاشياء بلغة واضحة ان رجل المزاج ينسى نفسه في نشوة الحواس في حين ان بودلير لا « يضيع » ابداً ان الفعل الجنسي يثير اشمئزازه لأنه طبيعي وفظ ولأنه في الحقيقة اتصال مع الآخر أن تجامع ،فهذا معناه انك تطمح الى الدخول في آخر والفنان لا يخرج ابداً من ذاته » لكن هناك وجوداً للذات مفصولة عن الانسان بمسافة الرؤية اللمس استنشاق لحم المرأة ومما لا ريب فيه ان هـذه اللذات هي التي كان يرضى بها لنفسه ولقد كان متفرجاً وفيتيشياً [1] لأن هذه الرذائل تخفف التنعم ولأنها تحقق الامتلاك من بعيد رمزياً إن صح التعبير ان المتفرج لا ينخرط ان رعشة بذيئة وخفية تجتاحه بأكمله بينما هـو يتأمل وعليه ثيابه كاملة ، عرياً ما دون ان يلمسه انه يقترف الشر وهو يعرف ذلك انه يمتلك الآخر عن بعد ويحتفظ بذاته وليس من المهم بعد ذلك ان يطلب الإرواء من

---

1 – الفيتيشية او الصنمية ، وهي ، في علم النفس ، التعلق بأشياء الحبيب بدلا من التعلق به هو نفسه ، كمناديله ، او رسائله او ربطة عنقه « المترجم »

المتعة المتوحدة ، كما قيل ، او مما يسميه ، بفظاظة مقصودة ، الحوزقة » وحتى جامع فانه يظل متوحداً ، اونونانياً ٢ لأنه في الحقيقة لا يتمتع الا بخطيئته الشيء الاساسي هو انه كان يعبد « الحياة » ، لكن الحياة المقيدة المكبوتة الممسوسة مساً وان هذا الحب الدنس كان يولد كزهرة الشر ، من ذبال الاشمئزاز وهكذا تصور ، بشكل عام الخطيئة تحت شكل الايروتيكية قبل كل شيء ان آلاف اشكال الشر الاخرى ، كالخيانة والدناءة والحسد والوحشية والشح وغيرها وغيرها ظلت غريبة عنه لقد اختار خطيئة باهظة الكلفة وارستقراطية انه لم يكن يمزح البتة مع عيوبه الواقعية من كسل وحب للتأجيل لقد كان يكره هذه العيوب ويأسف لها وهذا لأنها كانت تنتصب ضد حريته لا ضد غايات سابقة الوجود وهذا هو شأن المازوشي الذي يقبل قدمي عاهرة تصفعه من اجل المال والذي قد يقتل الانسان الذي شتمه عن جد . انما المهم ان تكون القضية قضية لعب لا يؤدي الى نتيجة لعب مع الحياة لعب مع الشر لكن بودلير يجد لذته في هذا اللعب على وجه التحديد ، لأنه لعب فارغ كاذب انفعال باطلة وعقيمة ، لا مستقبل لها ، شر وهمي مقصود مقترح اكثر منه متحققاً فما

---

١ — من يستمد اللذة الجنسية من نفسه ، كالعادة السرية على سبيل المثال. « المترجم »

مـــن شيء يجعله يحس بالحرية والعزلة كمثل هذا النوع من الشر وفي الوقت نفسه تكون حقوق الخير قد بقيت محفوظة ان المسألة لم تكن إلا مسألة ارتعاشات ، وبودلير قد انزلق لكنه لم يورط نفسه فعلاً لقد قيـــل لنا ان « بوفون ١ كان يكتب وهو يضع اكماماً واقية كذلك، فإن بودلير كان يرتدي قفازاً ليفعل الحب

وبدءاً من الإلحاح المزدوج ، يصبح مناخ بودلير الداخلي سهل الوصف لقد حاول هذا الرجل طوال حياتـه بدافع الكبرياء والحقد، ان يجعل نفسه شيئاً في نظر الآخرين وفي نظره بالذات لقد تمنى ان ينتصب بعيداً عن الخمل الاجتماعي الكبير على طريقة انتصاب التمثال كثيفاً ، نهائياً غير قابل للتمثل وبكلمة واحدة نقول إنه اراد ان «يكون» ، ونعني بذلك على طريقة الحضور العنيد والمحدد بدقة ، حضور الشيء لكن هذه الكينونة التي كان بودلير يريد ان يجعل الآخرين يلاحظونها وان يتمتع بها هو نفسه، لم يرض بأن تكون سلبية ولاشعورية شأن كينونة الاداة. انه يريد ان يكون موضوعاً لكن لا مجرد معطى مـــن معطيات الصدفة إن الشيء سيكون «شيئه» فعلاً وهــذا الشيء « سينقذ نفسه » اذا ثبت انه خلق نفسه بنفسه وانه يـــدعم كينونته من ذاته وهكذا نكون قد رجعنا الى

١ كاتب فرنسي (١٧٠٧ – ١٧٨٨) من كبار الاسلوبيين الكلاسيكيين « المترجم

ذلك النمط من حضور الوعي والحريـــة الذي سنسميه « بالوجود » ان بودلير لا يستطيع ولا يريد ان يعيش الكينونة او الوجود حتى الثمالة فهو ما يكاد يستسلم لأحدهما حتى يلتجيء الى الآخر واذا ما احس بأنه موضوع — موضوع مذنب — في نظر قضاته الذين اختارهم بنفسه ، فإنه سرعان ما يؤكد ضدهم حريته إما عن طريق خيلاء الرذيلة وإما عن طريق وسواس الضمير الذي يرفعه برفة جناح الى ما فوق طبيعته وإما بألف حيلة اخرى ستعرفها عما قليل لكنه اذا ما بلغ آنئذ حدود الحرية فإن الخوف يمتلكه امام مجانيته امام حـــدود وعيه ، ويتشبث بعالم جاهز الصنع ، الشر والخير معطيان فيه مسبقاً ، ويحتل فيه هو مكاناً محدداً لقد اختار ان يكون له وعي دائم التمزق وضمير غير مرتاح . وإن اصراره على ان يظهر أن في الانسان ثنائية دائمة تطلباً مزدوجاً روحاً وجسداً اشمئزازاً من الحياة ونشوة بالحياة ، انما يعبر عن انقسام فكره وتشتته ولأنه اراد ان يكون وان يوجد في آن واحد ولأنـــه يهرب باستمرار من الوجود الى الكينونة ومن الكينونة الى الوجود فهو ليس إلا جرحاً حياً فاغر الشفتين وجميع افعاله وكل فكرة من افكاره تشتمل على دلالتين ، على نيتين متناقضتين تتطلب كل منهما الاخرى وتدمرها انه يتمسك بالخير كي يستطيع ان يفعل الشر واذا كان يرتكب الشر فهذا اجلالاً للخير واذا خرج على العرف ، فهذا لكي يحس بقوة الشريعة احساساً اكبر ولكي تحكم

عليه نظرة ما وتصنفه رغماً عنه في التسلسل الكوني ، لكن اذا كان يعترف علناً بذلك النظام وبتلك السلطة الفائقة فهذا لكي يستطيع ان يفلت منها ويشعر بعزلته في الخطيئة إن تلك المسوخ التي يعبدها انما يجد فيها قبل كل شيء قوانين العالم التي لا اثر لمروز الزمن عليها وذلك حسب المبدأ القائل إن « الاستثناء يؤكد القاعدة لكنه يجدها مهزوءاً بها مذلولة إنه ما من شيء بسيط لديه انه ضائع في عالمه الذاتي حتى انه ليكتب يائساً إن لي روحاً متفردة للغاية حتى انني لا اتعرف فيها ذاتي وهـــذه الروح المتفردة تعيش في الخبث وسوء النية إن فيهـــا بالفعل شيئاً ما تخفيه عن ذاتها بهربها الدائم هذا لأنها اختارت ألا تختار خيرها هـــذا لأن حريته العميقة النافرة من ذاتها تستمد من الخارج مبادىء جاهزة على وجه التحديد لأنها جاهزة . وبالفعل علينا الا نتصور ، كما فعل اوميستر ان هـــذه التعقيدات مقصودة علناً وبوضوح وان بودلير يطبق فقط تكنيكاً ابيقورياً ففي مثل هذه الحال تكون جميع تلك الحيل باطلة وهـــو يعرف نفسه معرفة عميقة لا تسمح له بأن يخدع ذاته ان الاختيار الذي اختاره لنفسه له جذوره العميقة في اعماقه انه لا يميزه لأنه هو وذاته شيء واحد لكن علينا ألا نشبه انتخاباً حراً من هـــذا النوع بالكيميائيات الغامضة التي يصنفها علماء التحليل النفسي في عالم اللاشعور .

ان انتخاب بودلير هذا انما هو شعوره ، انما هو مشروعه الاساسي فهو ممعى ما متغلغل فيه الى حد بعيد حتّى انه ليبدو وكأنه صبوته الخاصة انه نور بصره ونكهة افكاره لكن في هذا الاختيار بالذات تتجلى نيته في ألا يقول ما بنفسه في ان يعانق كل معرفة وفي ألا يفسح المجال امام الآخرين ليعرفوه وباختصار ان هذا الاختيار المبدئي قائم من البداية على سوء النية ان بودلير لا يؤمن ايماناً تاماً بأي شيء يفكر فيه بأي شيء يشعر به بأي الم من آلامه بأي تنعم من تنعماته المتأزمة ولعل هذا هو ألمه الحقيقي لكن حذار من الانخداع بذلك إن عدم الايمان التام لا يعني نفياً وإنكاراً فسوء النية هو ايمان ايضاً ان علينا ان نفهم بالاحرى ان في عواطف بودلير نوعاً من الفراغ الداخلي انه يحاول عن طريق هيجان دائم وعصبية فائقة ان يعوض عن نقص عواطفه لكن عبثاً انها جوفاء انه يذكرنا بذلك المعتوه الذي اقتنع بأنه مصاب بقرحة في المعدة فراح يتدحرج على الارض ويعرق ويصرخ ويرتجف لكن الالم لم يكن له وجود ولو استطعنا ان نبعد جانباً الالفاظ المبالغ فيهـا التي يستعملها بودلير ليصف نفسه وان نهمل المفردات التي من امثال فظيع كابوس « قرف » والتي نصادفهـا في كل صفحة من صفحات « ازهار الشر » ، وان ننزل الى اعماق قلبه ، فقد نجد ، تحت

قناع الهواجس والوساوس ، تحت ستار رعدة الاعصاب ، اللامبالاة ، اللامبالاة الرهيفة التي يصعب احتمالها اكثر من الاوجاع لا تلك اللامبالاة الموهنة التي يسببها نقص بسيكولوجي بل بالاحرى تلك الاستحالة الجوهرية التي ترافق عادة سوء النية والتي تحول بين الانسان وبين ان ينظر الى نفسه بعين الجد ان علينا اذن ان ندرك ان جميع السمات التي تؤلف صورته مصابة بنوع من عـــدم مرهف وخفي وان نتجنب الانخـــداع بالكلمات التي سنستعملها لوصفه لأنها تذكر وتوحي بأكثر بكثير مما كان عليه ولنتذكر ، هذا اذا اردنا ان نستشف المناظر القمرية في تلك النفس المحزونة ان الانسان ليس إلا محتالاً

ان بودلير باختياره الشر قد اختار ان يشعر بأنه مذنب وانما من خـــلال تأنيب الضمير يحقق وحدانيته وحريته كخاطىء ان الاحساس بالذنب لن يغادره طوال حياته وهذه ليست نتيجة مزعجة لاختياره ان لتأنيب الضمير لديه اهمية وظيفية انه هـــو الذي يجعل الفعل خطيئة ان الجريمة التي لا يندم عليهـــا المرء لا تعود جريمة بل سوء حظ على احسن الاحوال ويخيل الينا ان تأنيب الضمير لديه يسبق الغلطة لقد كتب الى والدته وهو في الثامنة عشرة انه « لم يجرؤ على الظهور امام السيد اوبيك بكل قبحه » انه يتهم نفسه بأن لديه « عيوباً بالجملة لم تعد عيوباً محببة » . ويضيف ساخراً

تخبث من آل لاسيغ الذين كان يقيم عندهم لعله من صالحي ان اكون قد عريت وجردت من شاعريتي فأنا الآن افهم ما كان ينقصني فهماً افضل [1] وهـو لن يكف ابداً فيما بعد عن اتهام نفسه وبالطبع انـه صادق — او ان سوء نيته بالاحرى عميق جداً الى حـد فقد معه السيطرة عليه نه يشعر بقرف عنيف جداً من نفسه الى حد يمكننا معه ان نعتبر حياته سلسلة طويلة من العقوبات التي يفرضها على نفسه انه يفتدي نفسه عن طريق العقاب الذاتي او هـو « يجدد شبابه حسب تعبير عزيز عليه لكنه في الوقت ذاته يكوّن نفسه على انه مذنب انه يجرد غلطته من سلاحها ويكرسها مع ذلك الى الأبد انه يخلط حكمه الخاص على ذاته بحكم الغير فلكأنه يأخذ لقطة حية من حريته الخاطئة ويجمدها الى الابد انه ابداً الخاطيء الذي لا مثيل له لكنه في هذه اللحظة بالذات يتجاوز وضعه نحو حرية جديدة يهرب منه نحو الخير كما كان يهرب من الخير نحو الشر ومما لا ريب فيه ان العقاب لا يستهدف بشكل اعمق واغمض سوء النية الذي هو غلطته الوحيدة التي لا يريد ان يعترف بها والتي يسعى مع ذلك الى التكفير عنها لكن عبثاً يحاول ان يتخطى الدائرة المفرغة التي حبس نفسه فيها ذلك ان الجلاد لا يقل سوء نية عن الضحية ان

---

١ — رسالة الثلاثاء ١٦ تموز ١٨٣٩

العقاب هو رضاء بالنفس كالجريمة فهو يستهدف غلطة صُنِّفت كغلطة ، بحرية ، اعتماداً على معايير جاهزة . ان الحزن الاول والدائم الذي يسببه لنفسه هو بـــلا نقاش صحو الذهن ولقد رأينا اصل هذا الصحو فبودلير قد وضع نفسه دفعة واحدة على صعيد التأمل « لأنه كان يريد » ان يدرك غيريته لكنه يستخدمها الآن وكأنها سوط ان ذلك « الوعي من خلال الشر الذي يزهو به يمكن ان يكون احياناً لذيذاً ، لكنه واخز قبل كل شيء كالتوبة ولقد رأينا انه يخلط النظرة التي يسددها الى ذاته بنظرة الغير انه يرى نفسه او يحاول ان يرى نفسه كما لو انه شخص آخر ويقيناً يستحيل ان نرى انفسنا حقـــاً بعين الغير لأننا ننتمي بالدرجة الاولى الى ذواتنا لكن اذا ما لبسنا رداء القاضي اذا ما قلد وعينا المفكر الاشمئزاز والاستنكار إزاء الوعي المفكر به واذا ما استعار ذلك مفاهيمه ومعاييره من الاخلاق المكتسبة ليصف هذا ، فإننا نستطيع ان نوهم انفسنا للحظة من الزمن اننا ادخلنا مسافة بين التفكير وبين ما هو مفكر به ان بودلير يحاول عن طريق الصحو المعاقب لذاتـــه ان يجعل من نفسه موضوعاً في نظره هو بالذات وهو يشرح لنا ان هذا الصحو غير المشفق يمكن ان يأخذ علاوة على ذلك وبواسطة مقلب بارع وجه الفداء إن ذلك العمل السخيف ، الجبان او الفارغ الذي اثارت ذكراه في

نفسي الاضطراب لحظة من الزمن هو متناقض تناقضاً تاماً مع طبيعتي الحقيقية طبيعتي الراهنة ، والطاقة بالذات التي أتأمله بها والاهتمام الدقيق الذي احلله بـــه واحكم عليه يثبتان قابلياتي السامية والالهية للفضيلة كم نستطيع ان نجد في العالم من رجال لديهم مثل هذه البراعة للحكم على انفسهم ومثل هذه الصرامة لإدانة انفسهم ؟ ١

صحيح انه يتحدث ايضاً عن مدخن الافيون لكن ألم يقل لنا ان النشوة السامة لا تدخل تعديلاً جذرياً عـــلى شخصية المدمن ؟ انـــه هو ذلك المدمن الذي يدين نفسه ويغفر لذاته وهذه « الآلية » المعقدة آلية بودليرية مئة بالمئة انني من اللحظة التي اجعل من نفسي فيها موضوعاً ، عن طريق الصرامة الاجتماعية التي اعامل بها نفسي ، اصبح انا القاضي ، وتفلت الحرية من الشيء المحاكم لتأتي وتتلبس المدعي وهكذا حاول بودلير مرة اخرى عن طريق تركيب جديد ان يجمع بين الوجود والكينونه انه هو ذاته تلك الحرية الصارمة التي تفلت من كل ادانـــة لأنها ليست شيئاً إلا ادانة ، كما انه هو ذاته تلك الكينونة الساكنة في غلطتها التي تتأملها الأعين وتحكم عليها انه يُدخل في ذاته باعتباره داخلاً وخارجاً في آن واحد ، باعتباره موضوعاً وشاهداً على نفسه اقول انه يُدخل في ذاته عينَ الآخرين ليلتقط نفسه كآخر وفي اللحظة التي

١ – « الجنات الاصطناعية »

يرى فيهـــا نفسه ، تتوكد حريته وتفلت من جميع الانظار لأنها لا تعود شيئاً إلا نظرة لكن ثمة عقوبات اخرى بل يمكننا القول إن حياته بأكملها كانت عقاباً اني لا اكتشف فيها حادثاً واحداً مصيبة واحدة من تلك المصائب التي يمكن ان يقال عنها إنها غير مستحقة ، غير متوقعة فكل شيء يبدو وكأنه يرجع اليه صورته ، وكل حدث يبدو وكأنه عقاب متأمل به طويلاً لقد بحث ووجـــد مجلسه العائلي بحث ووجد إدانة أشعاره وفشله في الاكاديمية وذلك النوع من الشهرة المغيظة التي هي ابعد ما تكون عن المجد الذي كان يحلم بـــه لقد كان يبذل جهده ليكون بغيضاً كما يقصي ويُرفض كان يثير حوله شائعات تذله وكان بشكل خـــاص لا يهمل شيئاً كما يسود الاعتقاد بأنه لوطي يقول بويسون ، « لقد حُمل بودلير كنوتي تلميذ عـــلى ظهر سفينة تجارية راحلة الى الهند كان يتكلم باشمئزاز عن المعاملات التي عانى منها وحين نفكر مما كان ينبغي ان يكونه هذا المراهق الانيق الرهيف الذي يكاد ان يكون امرأة والذي تشرّب اخلاق البحارة فإنه لأكثر من مرجح ان يكون هذا صحيحاً اننا لنرتعد حين نسمعه » وفي ٣ كـــانون الثاني ١٨٦٥ يكتب من بروكسل الى السيدة بول موريس « لقد حسبوني هنا رجل بوليس (هذا حسن !) ولوطياً (انا الذي اذاع هـــذه

الشائعة ولقد صدقوني !) » انه بلا شك مصدر
تلك الشائعة الماكرة التي لا اساس لهـــا من الصحة والتي
يرويها شارل كوزان والتي تقول انه طرد من معهد « لويس
الكبير » بسبب لواطيته لكنه لا ينسب الى نفسه الرذائل
فقط بل كان يذهب الى حد يوقع معه نفسه في مواقف
تبعث على السخرية يقول آسولينو لو كان غيره ،
لمات من المواقف الباعثة عـــلى السخرية التي كان يوقع
نفسه فيها عن رضى والتي كانت نتائجها تجدد شبابه »
إن في قصص الذين عرفوه لهجة حمايـــة غريبة وساخرة
قـــد لا يتحملها قاريء اليوم كان يدفعهم هـــو الى
اتخاذها بسبب شذوذه حين اكون قد اثرت ضدي
القرف والاشمئزاز الشاملين اكون قد حققت عزلتي »
ويقيناً علينا ان نجد لهذه الرغبة في اثارة اشمئزاز الآخرين
اكثر من مفتاح واحد ، شأنها في ذلك شأن جميع مواقف
بودلير لكن مما لا ريب فيه انه ينبغي ان نرى فيها اولاً
ميلاً الى العقاب الذاتي لقد صنع كل شيء فيه بارادته
حتى مرضه بالزهري او على الاقل لقد جازف بذلك
في شبابه عن وعي ، ذلك لأنه يقول ان العاهرات الاكثر
بؤساً هـــن اللواتي يجذبنه الوسخ البؤس الجسدي
المرض المستشفى هذا ما يغريه هذا مـــا يحبه في
سارة اليهودية المقرفة »
والرذيلة الاخطر بكثير انها تضع شعراً مستعاراً

لقد هرب شعرها الاسود كله من بياض رقبتها
لكن هذا لا يمنع القبلات العاشقة
من الانهار على جبينها المـــليء بالبثور اكثر من
المصاب بالجزام

لم تبلغ العشرين   لكن صدرها متراخٍ
متهدل من الجانبين كالدباء
ومع ذلك تشدني كل ليلة فوق جسدها فأرضعها
وأعضها كالطفل الوليد

ورغم انها لا تملك في غالب
الاحيان فلسا واحداً
كي تفرك جلدها وتمسح كتفها
فإنني ألعقها بصمت   محمية اشد
من حمية المجدلية الملتهب امام قدمي المنقذ

المخلوقة المسكينة   اللاهثة اللذة
شهقاتها مبحوحة وصدرها منتفخ
وأدرك من صوت لهاثها الوحشي
انها غالباً ما ذاقت خبز المستشفى

اشعار   بأبه ظهرت في « فرنسا الفتاة   ثم اعيد طبعها في كتاب « بودلير » لأوجين كريبيه .

إن لهجة القصيدة لا تترك مجالاً لشك . وهي عمى
ما طبعاً صورة من تصريح بودلير المتعجرف في اواخر
حياته «لقد كان من احبوني اناساً محتقرين ، بل اقول
جديرين بالاحتقار اذا ما كنت اريـــد ان اتملق الناس
الشرفاء» انه اعتراف وقح نداء مضمر الى القارىء
المرائي – قرينه ، اخيه لكن لا ننسى ان المسألة هي مسألة
تعبير عن واقع إن المؤكد هو بودلير يسعى من
خلال جسد لوشيت بائس ، الى ان يحل على نفسه المرض
والعيوب والقباحة ان يتنكبها ويتكفل بها
لا بدافع الاحسان والمحبة بل كي يحرق بها جسده
إن وقاحـــة القصيدة تعبر عن رد الفعل المتروي فكلما
تدنّس الجسد ومرض بالملذات القذرة التي يغرق فيها
اصبح اكثر فأكثر موضوع قرف بالنسبة لبودلير نفسه
وكلما حس الشاعر بنفسه انه نظرة وحرية ، تجاوزت روحه
جسده البالي المريض أو نبالغ قلنا انه هو الذي اراد
ذلك الزهري الذي عذبه طوال حياته واودى به الى فرط
تبول والموت ؟

الملاحظات التي سبقت تسمح لنا بأن نفهم مذهب
بودلير الشهير في حب الألم . لقد شوش النقاد الكاثوليكيون ،
امثال ديبو وفوميه وماسان العقول كثيراً بصدد هذه
المسألة لقد بينوا عن طريق الف استشهاد ان بودلـــير
كان يطالب لنفسه بشر الاوجاع ولقد استشهدوا بأبيات

« البركة »

كن مباركاً يا آلهي يا من تهب الألم

كدواء إلٓهي لنجاساتنا

لكنهم لم يتساءلوا هل كان بودلير يتألم حقاً ان شهادات بودلير نفسه بهذا الصدد متنوعة مما فيه الكفاية ففي عام ١٨٦١، يكتب الى أمه ان اقتل نفسي انا هذا شيء سخيف أليس كذلك ؟ ستقولين

— ستترك اذن امك العجوز وحيدة

وايماني ! اذا لم يكن معي الحق في ذلك تماماً ، فأعتقد ان كمية الاوجاع التي اعاني منها منذ حوالي ثلاثين عاماً تعطيني العذر »

لقد كان في الاربعين آنذاك وهذا معناه انه يرجع ببداية مصائبه الى عامه العاشر وهذا ما ينطبق كل الانطباق تقريباً على السطور التالية من سيرته الذاتية « بعد عام ١٨٣٠ ، معهد ليون ، الضربات ، المشاكسات مع الاساتذة والزملاء الكآبات الثقيلة » انه « الصدع » الشهير الذي سببه زواج امه الثاني ورسائله غزيرة بشكاوى متنوعة من حالته لكن ينبغي ان نلاحظ ان هذه الرسائل موجهة دوماً الى السيدة اوبيك قد لا يجوز ان نعتبر هذه الشهادات صادقة تمام الصدق لكن تقارب النصين والنصوص يدل بما فيه الكفاية على كل الاحوال ، على

انه كان يستطيع ان يغير رأيه جذرياً بصدد وضعه حسب مراسليه ففي ٢١ آب ١٨٦٠ يكتب الى أمه

سأموت دون ان اكون قد فعلت شيئاً بحياتي كنت مديناً بعشرين الف فرنك فإذا بي الآن مدين بأربعين الفاً ولو قدر لي لسوء طالعي ان اعيش ايضاً طويلاً فإن الدين قد يتضاعف ايضاً »

اننا نلمح ههنا فكرة الحياة المضاعة المخفقة ، فكرة ما لا يمكن تعويضه وفكرة المآخذ الضمنية المتعلقة بمجلسه العائلي ان الرجل الذي كتب هذه السطور لا بد ان يكون يائساً والحال انه يكتب في عام ١٨٦٠ بعد شهر واحد الى بوليه — مالاسي

حين ستجد شخصاً حراً منذ السنة السابعة عشرة يهوى الملذات هوى مفرطاً بلا اسرة دوماً يدخل الحياة الادبية وعليه ٣٠،٠٠٠ فرنك ديوناً ولا يزيدها في مدى عشرين عاماً إلا بمقدار ١٠،٠٠٠ ، وهو علاوة على ذلك ابعد ما يكون عن الاحساس بليد ، فأرسله إلي لأحيي فيه قريبي

اللهجة هذه المرة اضمية ان هذا الرجل الذي يعلن « انه ابعد ما يكون عن الاحساس بأنه بليد هو ابعد ما يكون عن الاعتقاد بأنه لن يفعل شيئاً بحياته اما الديون فلقد صورها في رسالة آب وكأنها تتضاعف من تلقاء نفسها كما لو ان لعنة حلّت عليها . أما في رسالة

ايلول فهو يعلمنا ان ازديادها ظل محصوراً في نطاق حدود صارمة بفضل توفير ذكي اين الحقيقة ؟ لا في الحالة الاولى ولا في الثانية طبعاً انه لمن المذهل بالفعل ان يضخم بودلير الديون المستدانة بعد عام ١٨٤٣ حين يخاطب أمه وان يقلل من شأنها على العكس حين يكتب الى بوليه — مالاسان لكن نستطيع ان نفهم مما سبق انه كان يريد ان يظهر في نظر السيدة أوبيك بمظهر الضحية ان الرسائل التي يكتبها اليها هي خليط غريب من الاعترافات والتوبيخات المستترة وفي غالب الاحيان يكون المعنى هكذا تقريباً أرأيت الى أي درك هويت بي لقد كان طول عشرين سنة من مراسلاته هذه يبدي بلا كلل المآخذ نفسها زواج أمه مجلس العائلة انه يصرح آنسيل بالنسبة له الآفة العظمى وانه سبب ثلثي الخطوب التي حلت بحياته انه يشكو من التربية التي تلقاها من موقف أمه التي لم تكن « صديقة قط » من الخوف الذي يوحي به اليه زوج أمه . إنه يخشى ان يبدو سعيداً واذا تبين من قبيل الصدفة ، ان لهجته اكثر مرحاً فإنه سرعان ما يضيف

ستجدين هذه الرسالة اقل كآبة من غيرها لست ادري من اين عادت لي الشجاعة ومع ذلك ليس لي من داع للتمتع بالحياة

وبكلمة واحدة ، إن تشبثه بالألم له ، بشكل ظاهر ،

هدف مزدوج الاول ان يشبع احقاده فهو يريد ان يسكن الوسواس ضمير أمه والثاني اكثر تعقيداً فالسيدة اوبيك تمثل القاضي الخير انه يُذل نفسه امامها يبحث عن الادانة والغفران في آن واحد لكن هذا الخير الذي يتمسك بـه رغماً عنه والذي هو اشبه بحاجز امامه، يكرهه في الوقت نفسه الذي يجله فيه انه يكرهه لأنه لجام لحريته لأنه اختاره على وجه التحديد ليكون هذا اللجام ان هذه الشرائع موجودة ههنا لتُنتهك ، لكن لتثير في الوقت نفسه تأنيب الضمير لدى من ينتهكها لقد تمنى مئة مرة ان يتحرر منها ، لكن هذه الأمنية ليست صادقة كل الصدق لأنه لو تخلص منها فعلاً لفقد معها فوائد الرعاية والحماية وعلى هذا فإنه يحاول، باعتبار انه لا يستطيع ان ينظر اليها وجهاً لوجه وان يجعلها تتبخر تحت اقول يحاول ان ينتقص من قيمتها تخبث من تحت نظرته ، وان يجعلها مشؤومة دون ان ينتقص في الوقت نفسه من قيمتها المطلقة انه يضع نفسه في حالة حقد إزاء الخير وهذه عملية معروفة في العقاب الذاتي ويذكر الكسندر حالة مشابهة: ان رجلاً يشعر بحب سري تجاه امه ، يحس بأنه مذنب ازاء ابيه ويعاقب نفسه آنذاك عن طريق المجتمع ، الذي يمثل السلطة الابوية كيما تقلل الآلام الظالمة التي يفرضها عليه هذا المجتمع من السلطة التي له عليه وبالتالي كيما تجعله اقل ذنباً . ذلك انه اذا كان الخير اقل صلاحاً ،

فإن الشر يصبح اقل شراً ان الآلام التي يشكو منها بودلير لهي ايضاً اشبه بمخفف لغلطته انها تقيم نوعاً من التبادل بين الخاطىء والقاضي فالخاطىء يهين القاضي لكن القاضي فرض العقاب ظلماً على الخاطىء انها تمثل رمزياً التجاوز المستحيل للخير نحو الحرية انهـــا ديون بودلير على العالم اللاهوتي الذي اختار ان يعيش فيه أفلا يمكننا القول بهذا المعنى، انها مقلدة اكثر منها معاشة ؟ لا ريب في انه ليس ثمة فرق كبير بين احساس مصطنع وبين انفعال محسوس لكن هذه الاوجاع القائمة عـــلى سوء النية تظل تشكو من نقص أساسي انهـــا أشباح مزعجة لا حقائق وليست هي الاحداث التي تولدها، بل اتجاهات الحياة الداخلية انها مغذاة بالضباب ، وستظل ابداً ضبابية وحين يقرر بودلير ان ينتحر عام ١٨٤٥ بسبب صفعة سوط مفاجئة فإنه يكف دفعة واحدة عن التشكي فيشرح لآنسيل أن التقدير الموضوعي لموقفه هو الذي يدفعه الى الانتحار لا الآلام التي يعترف بأنه لا يشعر بها

وثمة مظهر آخر بالأصل للألم البودليري وبالفعل إن ألمه «كبرياءه» شيء واحد. إن رسالته الغريبة التي كان ينوي ان يكتبها الى ج جانان والتي ظلت مشروعــاً لم يتحقق تكفي لتدل على انه اختار من الاصل ان يتألم وان يتألم اكثر من الجميع « انك رجل سعيد انني ارثي لك ، يا سيدي ، على انك سعيد بمثل هذه السهولة.

أمن الواجب ان يسقط الانسان الى اسفل السافلين حتى يخيل اليه انه سعيد !... آه ! انك لسعيد يا سيدي عجباً قلت انني فاضل لفهمت ان هذا يعني : انني اتألم اقل من غيري لكن لا انك سعيد أسهل ارضاؤك اذن ؟ انني ارثي لك واء ان مزاجي السيء اكثر ذوقاً من غبطتك انني سأذهب الى حد التساؤل هل تكفيك مناظر الارض عجباً ألم تأخذك الرغبة قط في عمل لا لشيء المنظر الذي باباً جدية تدفعني الى لمن حب الموت [1]

إن هذا النص له دلالته الكاشفة انه يعلمنا اولاً ان الالم الى بودلير ليس هو الارتداد العنيف يلي لصدمة الكارثة بل هو حالة دائمة لا يستطيع اي شيء ان ينقصها او يزيدها وهذه الحالة تتجاوب مع نوع من لبسيكولوجي وانها لدرجة هذا التوتر التي تسمح بإقامة تسلسل بين البشر ان الانسان السعيد قد فقد توتر روحه ، قد سقط وبودلير لن يقبل ابداً بالسعادة لأنها لاأخلاقية وعلى هذا فإن شقاء الروح يتأتى منها هي لا كنتيجة للعواصف الخارجية ان الشقاء هو اندر صفات الروح سيء يدل خيراً من هذا على ان بودلير قد اختار ان يتألم إنه يقول إن الالم

---

١ – «مؤلفات لم تنشر» طبع ج كريبيه . الجزء الاول ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

هو النبل » لكن على وجه التحديد لأن هذا الالم ينبغي ان يكون نبيلاً فليس من المناسب — ولا من الملائم لخمول الداندي ١ — ان يأخذ مظهر انفعال وان يعبّر عن نفسه بصراخ او بكاء ان بودلير حين يصف لنا الانسان المتألم حسب مفهومه فإنه يهتم بأن يرجع سبب آلامه الى ابعد ماضٍ ممكن ان الرجل الحساس الحديث الذي يخصه بوده كله والذي يصوره في الجنات الاصطناعية له قلب حنون اتعبته التعاسة لكنه ما يزال مستعداً لتجديد شبابه اننا سنذهب اذا ما شئتم الى حد القبول بأخطاء قديمة ويقول في صواريخ إن رأساً جميلاً لرجل يحتوي على شيء حار وحزين — حاجات روحية مطامح غامضة مكبوتة — وفكرة عدم حساسية انتقامية واخيراً (حتى تكون لي الشجاعة للاعتراف الى اي حد اشعر بأنني عصري في علم الجمال) الشقاء ومن هنا كانت مودته التي لا تقهر نحو النساء العجائز ، تلك المخلوقات اللاتي تألمن كثيراً على ايدي عشاقهن واطفالهن واخطائهن الخاصة ايضاً

فلمَ لا يحبهن اذا ما تألمن وهن شابات ؟ هذا لأن

---

١ — معروف عن بودلير انه كان « داندي » : اي رجلا يحب الاناقة المفرطة والنعومة الزائدة ولقد جعل جيلا كاملا من الشباب يحتذون حذوه ويتصنعون في زيهم وتسريحة شعرهم « المترجم »

آلامهن تتجلى آنذاك بأزمات غير منتظمة لأنها تكون آلاماً مبتذلة ومع الزمن يحل محل تلك الانفجارات المتقطعة توازن حزين وهذا ما يستهوي بودلير قبل اي شيء آخر . ان هذا الشعور الذي يستحق اسم الكآبة اكثر مما يستحق اسم الألم ، يمثّل في نظره وعي الشرط الانساني. وبهذ المعى يكون الالم هو المظهر الانفعالي للصحو « سأذهب الي حد التساؤل هل تكفيك مناظر الارض » . إن هذا الصحو المنصبّ على وضع الانسان يكشف له عن منفاه ان الانسان يتألم لأنه غير راضٍ

عدم الرضى اجل ، هذا ما يفترض في الالم البودليري ان يعبر عنه إن « الانسان الحساس الحديث لا يتألم بسبب هذا الدافع الخاص او ذاك لكن لأنه ما من شيء على هذه الارض يمكن بشكل عام ان يرضي رغباته لقد اراد البعض ان يرى في هذا نداءً موجهاً الى السماء لكن بودلير كما رأينا لم يؤمن قط إلا في فترة اضناه فيها المرض ان عدم الرضى ينتج بالاحرى عن الوعي الذي شعر به تجاه الصبوة الانسانية فمهما كان الظرف ، ومهما كانت اللذة المقدّمة فأن الانسان ابعد منها دوماً ، يتجاوزهما نحو اهداف اخرى ونحو ذاته في النهاية بيد ان الانسان المحمول في سباقه الملقى بـه في مشروع طويل الأمد،لا يكاد ينتبه ، من خلال صبوته الفاعلة الى الظرف الذي يتجاوزه . انه لا يحتقره ، انه

لا يصرح بأنه غير راض عنه بل يستخدمه كوسيلة وعينه شاخصة الى الغاية الّتي ينشد ان بودلير العاجز عن العمل والمندفع بانتفاضات في مشاريع قصيرة الأمد سرعان ما يتخلى عنها ليسقط في الخمول ، يجد في نفسه ، اذا صح القول تجاوزاً مجمداً ان ما يصادفه على طريقه يتجاوزه هذا بديهي ، ونظرته تذهب الى ما وراء ما يراه لكن هذا التجاوز لا يعود الا حركة مبدئية انه لا يتحدد بأي هدف ويتيه في الحلم او اذا شئنا يعتبر نفسه غاية إن عدم الرضى البودليري يتجاوز ليتجاوز انه ألم لأنه لا شيء يفعمه لا شيء يشبعه

«مهما يكن مهما يكن ! المهم ان اكون خارج هذا العالم » لكن خيبته المستمرة لا تتأتى من ان المواضيع التي يلاقيها لا تتلاءم مع نموذج مقترح او ليست الادوات التي تناسبه فهو ما دام يتجاوزها تجاوزاً فارغاً فإنها تخيب أمله لا لشيء إلا لأنها كائنة انها كائنة اي انها موجودة ههنا كيما ينظر المرء الى ما وراءها وعلى هذا فان ألم بودلير ممارسة فارغة لصبوته بحضور المعطى انه يطرح نفسه ، عن طريق الألم وكأنه ليس من هذا العالم وهذا شكل آخر من اشكال ثأره من الخير وبالفعل وبقدر ما اخضع نفسه عن عمد للقاعدة الالهية ،

١ — « الجنات الاصطناعية « اينما كان خارج العالم » .

الأبوية او الاجتماعية فـان الخير يضيّق عليه الخناق ويسحقه فهو يرقد في اعماق الخير كما لو انه في بئر حتى صبوته تتأثر له ان الانسان هو دوماً شيء آخر حتى لو سُحق حتى لو تقاذفته امواج الخير لكن اذا ما عاش صبوته حتى الثمالة فانها ستقوده الى نقض هذا الخير نفسه الى الالقاء بذاته نحو اهداف اخرى تكون اهدافه حقاً لكنه يرفض ذلك يشدّ اللجام عـلى اندفاعها الايجابي انـه لا يريد ان يعيش إلا مظهرها السلبي كعدم رضى هذا المظهر الذي اشبه بتحفظ عقلي دائم فبالألم تكتمل الـدائرة بنغلق النظام لقد اخضع بودلير نفسه للخير حتى ينتهك حرمته واذا كان ينتهك حرمته فهذا ليشد بسطوته بقوة اكبر وليدان باسمه وليصنف ويحول الى شيء مذنب لكنه ، بالألم ، يفلت من جديد من ادانته ، ويستعيد نفسه كفكر وحرية ان اللعبة لا اخطار فيها انه لا ينقض الخير لا يتجاوزه وكل ما هنالك انه لا يقنع به انه لا يشعر حتى بالقلق ، فهو لا يتصور عالماً آخر له معايير اخرى فيما وراء العالم الذي يعرفه انه يعيش عدم رضاه لذاته فالواجب هو الواجب ، وهذا العالم وحده موجود بمعاييره لكن المخاوق الذي كانه والذي يحلم بهروب مستحيل يؤكد بكآبته المستمرة تفرده وحقه وقيمته الفائقة ليس ثمة من حل وهو لا يبحث عنه اصلاً كل مـا هنالك انه ينتشي

باليقين يقينه بأنه خير من هذا العالم اللامتناهي ، باعتبار انه غير راض إن كل مــا هو كائن كان يجب ان يكون ولا شيء يستطيع ان يكون غير ما هو كائن عليه هذه هي نقطة الانطلاق المطمئنة ان الانسان يحلم بما لا يمكن ان يكون بما لا يمكن ان يتحقق بالمتناقض هذه هي شهادات نبله هــذه هي الروحية السلبية التي يطرح المخاوق نفسه بواسطتها كتوبيخ تجـــاه الخليقة ويتجاوزها وليس من قبيل الصدفة ان يرى بودلير في الشيطان النموذج الكامل للجمال المؤلم ان الشيطان المقهور الساقط المذنب المفضوح من قبل الطبيعة كلهـــا القابع في الدرك الاسفل من مراتب الكون المرهق بذكرى الغلطة التي لا كفارة عنها الذي تتأكله صبوة غير مشبعة والذي تخترقه نظرة الله التي تحجره في ماهيته الشيطانية المرغم على ان يتقبل حتى في اعماق قلبه بتفوق الخير ، ان الشيطان هذا ليتغلب على الله نفسه ، سيده وقاهره ، بألمه ، بتلك الشعلة من عدم الرضى الحزين التي تلمع في اللحظة التي يقبل فيها بهــذا الانسحاق بالذات كتوبيخ لا تكفير عنه ان المقهور هو الذي ينتصر في النهاية ، باعتباره مقهوراً في هذه اللعبة القائمة عــلى مبدأ من يخسر يربح ان بودلير المتكبر والمقهور المسيطر عليه احساسه بوحدانيته تجاه العالم يشبه نفسه في سره بالشيطان ولعل الكبرياء الانسانية لم

تكن بعيدة قط كبعدها في هذه الصرخة المكتومة دوماً المكظومة دوماً ، والتي يرن صداها في جميع آثار بودلير « انا الشيطان ! » لكن ما الشيطان في الحقيقة إن لم يكن رمز الاولاد العصاة الحردين الذين يسألون النظرة الابوية ان تحجرهم في ماهيتهم المتفردة والذين يقترفون الشر في اطار الخير ليؤكدوا تفردهم ويكرسوه

إن هذه الصورة قد خيبت آمال البعض بلا شك فنحن لم نحاول حتى الآن ان نفسر ولا حتى ان نذكر اوضح واشهر صفات المزاج الذي نزعم اننا نصوره كالاشمئزاز من الطبيعة وعبادة « البرود » والداندية ، وتلك الحياة التي تتقدم متقهقرة برأس ملتفت الى الخلف ، تنظر الى الزمن يهرب كما يرى راكب السيارة الطريق يهرب من خلال المرآة العاكسة وما كان هناك من جدوى من البحث عن بعض الايضاحات عن ذلك الجمال الخاص للغاية الذي اختاره وعن الفتنة الخفية التي تجعل قصائده غير قابلة للتقليد ان بودلير ، بالفعل ليس بالنسبة الى الكثيرين — وهذا عن حق — إلا مؤلف « ازهار الشر » لا أكثر ولا اقل وهم يعتبرون لامجدياً كل بحث لا يتوصل الى ان يقرّبنا من « الواقعة الشعرية » البودليرية

لكن معطيات المزاج التجريبي ليست هي اول ما يتكون ، وان كانت اول ما يصادف أنها تعبر عن تحول في الموقف

عن طريق اختيار مبدئي   انها تعقيدات هذا الاختيار ،
وبكلمة واحدة   ان في كل تعقيد منها تتعايش جميع
التناقضات التي تمزقه   لكن بشكل اقوى واكثف ، نتيجة
احتكاكها بتنوع مواضيع العالم. ان الاختيار الذي وصفناه ،
ذلك التأرجح المستمر بين الوجود والكينونة   نقر بأنه
يظل معلقاً في الهواء اذا لم يتجل عبر موقف عيي وخاص
تجاه جان دوفال او مدام ساباتييه   آسولينو او بارباي
دوريفيلي   او تجاه هر او وسام الشرف او القصيدة التي
روّج لها بودلير   لكنه عند احتكاكه بالواقع يتعقد الى
ما لا نهاية   فلكأن كل فكرة وكل مزاج عقدة افاع لما
يشتملان عليه من معان متباينة ومتعارضة   وباعتبار ان
الفعل الواحد يمكن ان يكون قد اريد لأسباب يهدم بعضها
بعضاً   لهذا فمن المناسب ان نسلط الضوء على الاختيار
البودليري قبل ان ندرس سلوكه

كثيراً ما اشار نقاد بودلير ومؤرخو سيرته الى
نفوره من الطبيعة   ولقد اراد اكثرهم ان يجد سبب هذا
النفور في تكوينه المسيحي وفي التأثير الذي مارسه عليه
جوزيف دي ميستر   ان تأثير هذين العاملين لا ينكر ،
وبودلير نفسه يستشهد بهما حين يريد ان يشرح موقفه
« إن معظم الاخطاء بصدد مفهوم الجمال تتأتى من المفهوم
الخاطيء للقرن الثامن عشر عن الاخلاق   لقد اتخذت
الطبيعة في ذلك القرن كأساس ومنبع ونموذج لكل خير

ولكل جمال ممكنين ولقد كـــان لنفي الخطيئة الاصلية تأثيره الكبير على اصابة ذلك القرن بالعمى العام لكن اذا اكتفينا بأن نعتمد عـــلى الواقعة الظاهرة المنظورة فقط على تجربة جميع الاجيال وعلى « مجلة المحاكم » فسنجد ان الطبيعة لا تعلم شيئاً او لا شيء تقريباً اي انها ترغم الانسان على ان ينام ويشرب ويأكل ويؤمن على نفسه كيفما اتفق ضد عوادي المناخ كما انها هي التي تدفع الانسان الى قتل قريبه ، الى افتراسه ، الى حبسه الى تعذيبه ان الجريمة التي ذاق الحيوان البشري طعمها في بطن أمه هي بالأصل طبيعيه اما الفضيلة فهـي على العكس مصطنعة فائقة الطبيعة ، باعتبار انه كان لا بد من وجود آلهة وانبياء في جميع الازمان ولدى جميع الامم ليعلموها للانسانية الحيوانية وباعتبار ان الانسان يعجز عن اكتشافها بمفرده أن الشر يرتكب بدون جهد طبيعياً قضاء وقدراً اما الخير فهو دوماً نتاج فن [1]

لكن هذا النص الذي يبدو حاسماً عند القراءة الاولى ، تتضاءل قدرته على الاقناع عند القراءة الثانية ان بودلير يشبّه فيه الشر بالطبيعة وهـــذه السطور يمكن ان تكون ممهورة باسم المركيز دي ساد لكن لكي نصدقها مئة بالمئة فلا بد ان نكون قـــد نسينا ان الشر البودليري

١ — « الفن الرومانتيكي » رسام الحياة الحديثة . مديح الماكياج .

الحقيقي الشر الشيطاني الذي اتى على ذكره مئة مرة في آثاره ، هو نتاج متعمد من الارادة والتصنع فاذا كان هناك اذن شر مرهف وشر مبتذل فان الابتذال هـو الذي يثير قرف مؤلفنا لا الجريمة وبالاصل ان المسألة تتعقد اذا بدت الطبيعة في عـدد من النصوص شبيهة بالخطيئة الاصلية ، فان المقاطع التي يكون فيها تعبير « طبيعي مرادفـاً لشرعي وعادل كثيرة في رسائل بودلير واني لأستشهد بأحدها دونما انتقاء ، ويستطيع من يريد ان يجد مئة مقطع آخر لقد كتب في : آب ١٨٦٠

ان هذه الفكرة مشتقة من النية الاكثر طبيعية والاكثر بنوّة ».

لا بد اذن من الاقرار بوجود التباس في مفهوم الطبيعة ان الاشمئزاز الذي يشعر به بودلير تجاهها ليس قوياً الى حد يمنعه من الدفاع عن نفسه او تبريرها اننا سنجد ، عند الدراسة في موقف الشاعر طبقات من الدلالات متنوعة للغاية الطبقة الاولى منهـا الموجودة في نص الفن الرومانتيكي » الذي استشهدنا به ادبية ومتماسكة (تأثير ميستر على بودلير سطحي بالدرجة الاولى فلقد كان الاخير يجد أن من الأناقة » ان يعلن عنه) والطبقة الاخيرة منها الخفية يمكننا ان نستشفها من خلال التناقضات التي اتينا على ذكرها .

إن ما يبدو انه قد اثر على فكر بودلير اكثر من قراءة « امسيات سان بطرسبورغ ١ » ، هو التيار الكبير المضاد للمذهب الطبيعي ، التيار الذي يمتد من سان سيمون الى مالارميه وهويسمان مخترقاً القرن التاسع عشر كله ان العمل المشترك الذي قام بـه السان سيمونيون والوضعيون وماركس قد وُلـد في حوالي عام ١٨٤٨ حلماً بطبي مضادة وتعبير « طبيعة مضادة بالذات هو من ابتكار اوغست كونت وفي مراسلات ماركس وانجلز نجد تعبير « الفيزياء المضادة » ان المذاهب مختلفة لكن المثل الاعلى واحد فالمطلوب هو اقامة نظام انساني متعارض مباشرة مـع الاخطاء والمظالم والآليات العمياء التي يشتمل عليها العالم الطبيعي وما يميز هـذا العالم عن مجتمع الغايات » الذي تصوّره « كانت » في نهاية القرن السابع عشر والذي عارض به هو الآخر النزعة الحتمية الصلبة انما هو تدخل عامل جديد العمل فالانسان ما عاد يفرض نظامه على الكون بأنوار العقل وحدها بل بالعمل وبوجه خاص العمل الصناعي ولا يعود منشأ هذا المذهب المضاد للطبيعة الى مذهب بالٍ من مذاهب النعمة بل الى ثورة القرن التاسع عشر الصناعية وظهور الآلية ولقد حمل التيار بودلير يقيناً ان العامل لا ينال اهتمامه

---

٢ كتاب من تأليف جوزيف دي ميستر (١٨٢١) يتهجم على الثورة ويبين التأثير الزمني للعناية الالهية « المترجم »

لكن العمل يجذبه لأنه اشبه بفكر مطبوع في المادة لقد اغرته دوماً صورة ان الافكار هي مواضيع صلبة متينة وبذلك كان يستطيع ان يرى صورته فيها وكأنها مرآة لكن الوقائع الطبيعية ليست لها بالنسبة اليه اي دلالة انها لا تريـد ان تقول شيئاً ولا شك في ان ذلك القرف وذلك السأم اللذين يستوليان عليه امام الرتابة المبهمة الخرساء غير المنظمة لمشهد من المشاهد ، هما واحد من اكثر ردود فكره مباشرة وتلقائية

انك تسألني اشعاراً لكراسك الصغير اشعاراً عن الطبيعة اليس كذلك عن الغابـات عن اشجار السنديان الكبيرة عن الخضرة عن الحشرات — وعن الشمس بلا ريب ؟ لكنك تعرف تمام المعرفة انني عاجز عن الانفعال بالنباتات وان روحي تتمرد على هـذا الدين الجديد الغريب الذي سيكون له دوماً ، على ما يخيل إلي بالنسبة الى كل مخلوق روحي طابع فاضح يصدم النفس انني لن اصدق ابداً روح الآلهة تسكن في النباتات وحتى لو سكنت فيها فلن اهتم بها كثيراً ، وسأعتبر روحي ثروة اسمى قيمة من روح الخضار التي تضفي عليها صفة مقدسة [1]

نباتات خضار مقدسة ان هاتين الكلمتين تدلان

---

١ — رساله الى ف . دينوايبه (١٨٥٥) .

بما فيه الكفاية على الازدراء الذي يخص بـــه تفاهة عالم النبات انه يتمتع بحدس عميق بذلك الوجود العادم اللزوم ، العديم الشكل ، العنيد ، الذي هو الحياة – التي هي عكس العمل تماماً – ويشعر تجاهها بالاشمئزاز لأنها تعكس امام عينيه مجانية وعيه الذاتي التي يريد ان يخفيها عن نفسه بأي ثمن انه يهوى هو ساكن المدينة الموضوع الهندسي الخاضع للتعقيل والتقنين الانساني ويروي شونار انه كان يقول « انني لا استطيع تحمل الماء الحر انني اريده سجيناً ، مقيداً بين الجدران الهندسية لرصيف ميناء [1]

انه يريد ان يطبع العملُ أثره حتى على ما هو سائل ولمـــا كان لا يستطيع ان ينسب الى السائل صلابة تتنافى وطبيعته فإنه يريد ان يحبسه بين اسوار اشمئزازاً من ميوعته ومرونته المتشردة انه يريد ان يكيّفه هندسياً وانه ليذكرني بصديق قال لأخيه بينما كان هذا يملأ قدحاً من الماء من صنبور المطبخ ألا تفضل بالآحرى ماء حقيقياً ؟ وذهب يأتي بإبريق من خزانة غرفة الطعام لقد كان الماء الحقيقي هو الماء المحصور الذي اخترقه تفكير الإناء الذي يحتويه ، ففقد بالتالي شكله المشعث وكل الدنس الذي كان يحمله من محاذاته للمغسلة ، وبات يساهم في النقاء الأثيري الشفاف للعمل الانساني انه ليس الماء

---

١ – شونار « ذكريات نقلا عن كريبيه في كتابه « شارل بودلير » .

المجنون ، الماء المبهم ، الماء الراشح او الآسن او السائل ، بل هو المعدن المتراكم في قاع الابريق المتأنسن بواسطة الإناء ان بودلير من سكان المدن فالماء الحقيقي بالنسبة اليه والنور الحقيقي والحرارة الحقيقية هي ماء المدن ونورها وحرارتها ، بعد ان تكون قد تحولت الى موضوعات فنية ووحّدها فكر متمكن من نفسه ذلك ان العمل قد قلّدهـــا وظيفة ومكانة في التسلسل الانساني إن الواقعة الطبيعية ، اذا ما اخترّقها العمل وانتقلت الى صف الادوات ، فقدت عدم قابليتها للتبرير ان للأداة وجوداً بالحق بالنسبة الى الانسان المعني بها فالعربة في الشارع والواجهة الزجاجية موجودتان بالصورة التي يتمنى بودلير ان يوجد بهـــا وتقدمان له صورة الوقائع المدعوة الى الكينونة بوظيفتها الوقائع التي تظهر لتملأ فراغاً بدعوة من هذا الفراغ بالذات الذي ستملأه واذا كان الانسان يتملكه الخوف في حضن الطبيعة فهذا لأنه يحس انه غارق في وجود كبير الابعاد ، مجاني ، عديم الشكل ، يلفحه كله بمجانيته فلا يعود له من مكان على الاطلاق ، وينطرح على الارض ، بلا هدف بلا سبب للوجود كنبات الخلنج او حفنة من الوزال اما في قلب المدن فإنه يشعر على العكس باطمئنان حيث تحيط به اشياء لها وجود محدد بدورها ، ومكللة بهالة قيمة او ثمن انها ترجع اليه انعكاس مـا يتمنى ان يكونه : واقعاً مبرراً وان بودلير بقدر مـــا

يريد ان يكون شيئاً وسط عالم ج . دي ميستر يحلم بأن يكون له وجود قيمة ووظيفة في التسلسل الاخلاقي ، تماماً كما توجد الحقيبة الانيقة او الماء الاليف في الاباريق في تسلسل الادوات

لكن ما يسميه بالطبيعة هـــو قبل كل شيء الحياة وكلما تحدث عنها ذكر النباتات والحيوانات ان طبيعة الفريـــد دي فينيي اللامتأثرة هي مجموع القوانين الفيزيائية ـــ الكيميائية اما طبيعة بودلير فأشد فتنة انها قوة كبيرة دافئة وفيرة متغلغلة في كل مكان وانه ليشعر بالاشمئزاز امام هذا الدفء الرطب امام هذه الوفرة إن التكاثر الطبيعي الذي يولد ملايين النسخ من نموذج واحـــد لا يمكن إلا ان يصدمه في حبه للندرة فهو ايضاً يستطيع ان يقول اني احب ما لا يرى ابداً مرتين وهو يمدح بذلك العقم المطلق إن ما لا يستطيع ان يتحمله في الأبوة انما هي استمرارية الحياة بين الوالد والذرية التي تحكم على الاول بأن يستمر في الحياة من خلال الثانية حياة مظلمة ذليلة ان هذه الابدية البيولوجية تبدو له غير قابلة للاحتمال اما الانسان النادر فيحمل الى قبره سر صنعه انـــه يريد نفسه مطلق العقم فهذه هي الوسيلة الوحيدة ليعطي نفسه قيمة ولقد غالى بودلير في هذه المشاعر حتى انه كان يرفض الابوة الروحية نفسها فقد كتب الى تروبا عا ١٨٦٦ بعد سلسلة من مقالات

المديح لفرلين إن اولئك الشبان لا يفتقرون بالتأكيد الى الموهبة لكن ما اكثر جنونهم وعدم دقتهم ! ما اكثر مبالغاتهم ما أفقرهم الى الدقة ! واذا شئت الحقيقة فإنهم يبعثون في خوفاً حقيقياً انني لا احب شيئاً حبي ان اكون وحيداً [1] الخلق الذي يرفع من قيمته الى السماء السابعة هو عكس الإنسان فهو لا يورط نفسه فيه يقيناً لفي هــذا بغاء لكن العلة الروح اللامتناهية التي لا ينضب لها معين ، تظل ههنا على ما هي عليه ، دونما تبادل او تشويه حتى بعد ان تنتج معلولها اما الموضوع المخلوق فإنه لا يعيش البتة انه غير قابل للفناء وخامــد الروح كحجر او كحقيقة ابدية ومن الواجب كذلك ألا يخلق المرء بغزارة ووفرة ، وإلا اقترب من الطبيعة ان بودلير يظهر في كثير من الاحيان نفوره من مزاج هيغو الغليظ واذا كان قد كتب قليلاً ، فليس ذلك من قبيل العجز لقد كانت قصائده ستبدو له اقل ندرة لو لم تكن نتيجة افعال استثنائية للفكر عددها الصغير شانه شأن كمالها وإحكامها دليل على طابعها « الفائق الطبيعة لقد سعى بودلير طوال حياته وراء اللاخصب وأشكال الجمادات الصلبة العقيمة هي التي اسرت اهتمامه وبدت له رائعة من العالم الذي يحيط به وقد كتب في « قصائد منثورة

---

١ - رسالة ٥ آذار ١٨٦٦

هذه المدينة تقع على ضفة الماء ولكأنها مبنية من الرخام ولكأن الشعب فيها يكره النبات كرهاً عظيماً حتى انه ليقتلع الاشجار جميعاً انه لمشهد يناسب ذوقي فعلا مشهد مصنوع من النور والجماد والسائل التي تدعو الانسان الى التفكر بها [1]

ولقد اصاب جورج بلان عين الصواب حين قال انه يخشى الطبيعة باعتبارها مستودعاً للعظمة والخصب ويحل محلها عالم خياله عالماً معدنياً ، اي بارد العقم والضياء »

ذلك لأن المعدن وبصورة عامة الجماد يرجعان اليه صورة الفكر فنظراً الى حدود قوتنا التخيلية ، فإن جميع الذين ارادوا معارضة الحياة والجسد بالفكر قد اضطروا الى ان يكوّنوا لأنفسهم صورة غير بيولوجية عنه ، ولجأوا بالضرورة الى ملكوت الاشياء التي لا تدب فيها حياة الضوء البرد الشفافية العقم وكما ان بودلير يجد في « الحيوانات النجسة » صورة لأفكاره المتحققة المتشيئة ، كذلك فإن ألمع المعادن وأصقلها ، وأقلها ممسكاً ، الفولاذ يبدو له صيرورة موضوعية دقيقة لفكره بصورة عامة واذا كان يحنّ الى البحر ، فلأنه جماد متحرك ان البحر اللامع المستعصي المنال ، البارد ، بحركته النقية اللامادية تقريباً بأشكاله التي تتتابع بتغيره الذي لا يتغير معه شيء واحياناً بشفافيته ان هذا البحر يقدم

---

١ اينما كان خارج العالم

افضل صورة عن الفكر   انه الفكر   وهكذا كان على بودلير   لكراهيته الحياة   ان يختار في المادية النقية رمز اللامادي

انه يخشى   بصورة خاصة ، ان يشعر داخل ذاتـــه بذلك الخصب العظيم الرخو   إلا ان الطبيعة موجودة مع ذلك   والحاجات موجودة ، وهي « ترغمه » على إشباعها. يكفي ان نقرأ النص الذي استشهدنا بـه اعلاه حتى نرى انه انما يكره هذا   الإرغام   على وجه التحديد   لقد كانت هناك فتاة روسية تتناول المهيجات حين تأخذهــا الرغبة في النوم   ما كانت تستطيع ان تقبل بأن تترك ذلك الاغراء الخفي الذي لا تمكن مقاومته يغزوها   وبأن تغرق في النوم على حين غرة   وبألا تعود الا حيواناً راقداً   هكذا هو بودلير   فحين يحس بالطبيعة تصعد فيه   طبيعة الناس جميعاً   كطوفــان   كان يتشنج ويتصلب   ويرفع رأسه خارج الماء   ان هذه الموجة الموحلة الكبيرة هي الابتذال بعينه   ان بودلير ليغضب عندما يشعر في داخله بهذه الامواج الدبقة التي لا تكــاد تشبه البتة الحركات الدقيقة الناعمة التي يحلم بها   انه يغضب بوجه خاص من إحساسه بأن هذه القوة الوديعة التي لا تمكن مقاومتها تريد ان ترغمه على « التصرف كجميع الناس   . ذلك ان الطبيعة فينا هي عكس الندرة والرفاهة، انها جميع الناس   الأكل كما يفعل جميع الناس ، النوم كما يفعل جميع الناس   فعل الحب كما يفعــل

جميع الناس يا له من غباء ! ان كلاً منـــا يختار بينه وبين نفسه من بين جميع مركباته تلك التي سيقول عنها انها أنا اما المركبـــات الاخرى فيتجاهلها ولقد اختار بودلير ألا يكون طبيعة وان يكون ذلك الرفض الدائم المتشنج لغرائزه « الطبيعية ذلك الرأس الذي ينتصب خارج الماء وينظر الى ارتفاع الموج بمزيج من الازدراء والذعر ان هذا الانتخاب التعسفي والحر الذي نقوم به داخل انفسنا يشكل في معظم الاحيان ما يسمى اسلوبنا في الحياة واذا ما قبلت لجسدك ، وخضعت لنزواته واذا كنت تحب ان تسبح في التعب السعيد والحاجات والعرق وكل ما يقربك من سائر الناس ، واذا كان لك مذهب انساني عن الطبيعة فإن حركاتك سيكون لها نوع من الاستدارة والكرم وسهولة عفوية والحال ان بودلير يكره العفوي فهو من الصباح الى المساء لا يطلق العنان لنفسه ثانية واحدة انه يستعيد بسط شهواته واكثر انطلاقاته تلقائية ويرشحها ويمثلها اكثر ممـــا يعيشها انها لا تمر الا بعد ان تصبح متصنعة على النحو المطلوب ومن هنا كان حبه للحلاقة والثياب التي يفترض فيها ان تخفي العري الطبيعي اكثر مما ينبغي ومن هنـا كانت نزواته التي تقارب احياناً السخافة المضحكة كأن يصبغ شعره بالاخضر ان الإلهام بالذات غير مستحسن في نظره يقيناً انه يوليه ثقته الى حد ما « في الفن ، وهـذا شيء غير ملحوظ بمـا فيه الكفاية ، ليس المكان

المتروك لإرادة الانسان كبيراً بالقدر الذي يظنه الناس لكن الالهام هو ايضاً من الطبيعة انه يأتي متى شاء وتلقائياً انه يشبه الحاجات فلا بد اذن من تحويله من الشغل به انه يصرح « انا لا اؤمن بالعمل الصابر بالحقيقة المؤداة بفرنسية جيدة وبسحر الكلمة الصحيحة وبذلك تصبح المادة مجرد كلمة يمارس عليها الشاعر عن عمد التقنيات الشعرية ووراء هذه الشراسة في البحث عن الكلمة الصحيحة تلك الشراسة التي تحدث عنها ليون كاديل يكمن الشيء الكثير من الكوميديا وحب التصنع من السطر الاول ، من الكلمة الاولى، لا بد ان نشطب ! هل هذه الكلمة دقيقة وهل تؤدي بدقة المعنى المطلوب ؟ حذار ! تخلطن بين المحبب والمحبوب بين الفاتن والساحر بين الباش واللطيف ، بين المغري والمثير ، بين الأنيس والدمث حذار فهذه الالفاظ ليست مترادفة ان لكل منها معناها الخاص انها تعبر بقدر متفاوت عن سياق واحد لكنها لا تقول الشيء نفسه ! إن علينا ألا نستخدم ابداً لفظة محل اخرى... إن علينا نحن العمال الادبيين الادبيين الخالصين ان نكون دقيقين دوماً ان نجد التعبير المطلق او نتخلى عن مسك الريشة ونعمل في تصويل الكلس فلنبحث ولنبحث واذا لم نجد اللفظة فلنخترعها .

١ — نقلا عن أ . كريبيه في « شارل بودلير »

لكن لنرَ اولاً إن كانت موجودة! فلنمسك بمعاجم لغتنا، ولننقض عليها بحثاً ، وتنقيباً ، وسبراً ، بشراسة محب... ثم يأتي دور القواميس الاجنبية فلنبحث في القاموس الفرنسي – اللاتيني ثم في اللاتيني – الفرنسي انها مطاردة غير راحمة. لا شيء لدى القدامى؟ لدى المحدثين؟ فلنكن كذلك العالم اللغوي العنيد المتمرس بمعظم اللغات الحية تمرسه بمعظم اللغات الميتة المنهمك في المعاجم الانكليزية والالمانية والايطالية والاسبانية ، مطارداً التعبير المتمرد المستعصي المنال عاملاً في النهاية على خلقه إن لم يكن له وجود في لغتنا وهكذا فإن شاعرنا بدون ان ينفي البتة واقعة الالهام الشعرية يحلم بأن يحل محلها التكنيك الخالص المحض ان هذا الكسول يرى قدر الكاتب في الجهد والعمل لا في التلقائية الخلاقة وهذا الحب لفرط التصنع والتدقيق فيه يسمح لنا بأن نفهم بأنه كان يمضي ساعات طويلة في تنقيح قصيدة قديمة للغاية وابعد ما تكون عن مزاجه كيلا يكتب قصيدة جديدة وحين كان ينحني وكله جدة وكغريب على عمل مصنوع سابقاً دون ان يدخل فيه وحين كان يعرف فرح العامل في تغيير كلمة ما هنا او هناك لمجرد لذة التنقيح ، فآنذاك كان يشعر انه ابعد ما يكون عن الطبيعة واكثر الكائنات مجانية – لأن الزمن قد حرره من إكراهات الانفعال والظرف – وأكثرها حرية . وفي الجانب المقابل

من مشاغله في اسفل السلم تماماً نستطيع ان نفسر بالاشمئزاز من الحاجات الطبيعية ذلك التعلق التعيس الذي كان يبديه نحو فن الطبخ الذي لم يكن يتنازل ليأكل لاشباع معدته ، بل ليقدر عن طريق الاسنان واللسان والحنك نوعاً معيناً من انواع الخلق الشعري واني لأراهن انه كان يفضل اللحم بالمرق على اللحم المشوي والمعلبات على الخضار الطازجة ان الرقابة الدائمة التي مارسها على نفسه تسمح لنا بأن نفهم لماذا ترك لدى الناس انطباعات متناقضة ان المسحة الاكليريكية التي يقر بها له معظم الناس تنبع لديه من رقابة فرضها باستمرار على جسده. لكن مشيته المشدودة المتصلبة ، القليلة المرونة — والتي تبدو غريبة عن حبر من احبار الكنيسة — ليس لها مصدر آخر على كل حال انه يغش الطبيعة ويزوّرها انه يمنحها بركته ولطفه عندما تغفو وينقبض عندما يشعر انها قد استيقظت ، وبذلك يظل الانسان الذي يقول لا الذي يخفي جسده المسكين في ثياب سميكة الذي يقمع رغباته البائسة بأبهة مدروسة بل انني لست واثقاً من اننا لا نستطيع ان نجد في هذا مصدراً من مصادر الرذائل البودليرية ويبدو ان النساء كن يبلبلن افكاره عندما يكن مرتديات ثيابهن بوجه خاص وما كان يستطيع ان يتحمل عريهن انه يكيل لنفسه المديح في « صورة العشيقة » على انه قد توصل منذ زمن

بعيد الى السن التي يصبح فيها للجو الاهمية الاولى ، والتي لا يعود فيها الجمال نفسه كافياً إن لم يكن مترافقاً بالعطر والزينة الخ ويبدو انه قد دخل دفعة واحدة في هذا العمر المتأثر بـ « الجو » كما يشهد على ذلك المقطع التالي من لا فانفارلو » الذي كتبه في ايام شبابه والذي هو اشبه باعتراف

شاهد هامويل إلاهة قلبه الجديدة تتقدم نحوه في عظمة عريها المشعة المقدسة

اي انسان لا يريد ، ولو على حساب نصف ايامه، ان يرى حلمه حلمه الحقيقي يقف بلا قناع امامه ، وشبح خياله المعبود يخلع عنه واحداً تلو الآخر الثياب التي تحميه من نظرات الابتذال لكن ها هوذا هامويل يأخذ بالصراخ كطفل مدلل وقد استولت عليه نزوة غريبة

— اريد كولومبين اعيدي إلي كولومبين اعيديها إلي كما تبدّت لي في ذلك المساء الذي سلبت فيه لبي بزيها الغريب المضحك وردائها الشبيه برداء المهرج

« وارادت لافانفارلو التي استولت عليها الدهشة في البداية ان تلبي نزوة الرجل الذي اختارته ، فقرعت الجرس لفلورا وخرجت الوصيفة وعندها تعلق كرامر بحبل الجرس وقد استولت عليه فكرة جديدة وهتف بصوت مرعد

— ايه . لا تنسي احمر ؟ »

واذا ما قارنا هـــذا النص بذلك المقطـع المشهور من « الآنسة بستوري

اريد ان يأتي ليراني بحقيبة يده ومئزره بل مـع شي من الدم ايضاً ! — قالت هذا بلهجة ساذجة كلهجة رجل حساس يقول لممثلة يحبها اريـــد ان اراك في الزي الذي ترتدينه في ذلك الدور المشهور الذي خلقته[1] ».

اقول اذا ما قارنّا هذين النصين فلن يبدو لنـا ان هناك شكاً في ان بودلير كان مصاباً بالفيتيشية ألا يعترف بنفسه في صواريخ « التعلق المبكر بالنساء كنت اخلط رائحة الفرو برائحة المرأة إني لأذكر على كل لقـــد كنت احب امي لأناقتها » اللحوم المتنكرة المقنعة عرق كله بهارات ، الماء الحبيس في احواض هندسية ، عري النساء المتحجبات بالفرو او بملابس المسرح ، اللاتي ما يزال عليهن اثر من العطر أثر من اضواء المسرح الإلهام المكبوح المقنع بالجهد والكد هذه وغيرها إن هي إلا مظاهر من نفوره من الطبيعة وممـا هو مشترك بين الناس ها نحن اذن بعيدون كل البعد عن نظرية الخطيئة الاصلية وحين كان بودلير لاشمئزازه من العري ، لحبه الملذات الخفية ، الملموحة لمحاً ، والدغدغات العقلية المحض ، حين كان يطلب من جان دوفال ان ترتدي ثيابها ليضاجعها ، يمكننا ان نكون واثقين من انه لم يكن يفكر بـ « امسيات سان بطرسبورغ » .

١ — « قصائد نثرية صغيرة » — ص ١٦٣

لكن مفهوم الطبيعة كما اشرنا الى ذلك مفهوم ملتبس لديه وله اكثر من معنى فحين كان يرافع عن قضيته ويرغب في اثارة العواطف بصدد نياته ، كان يصور مشاعره على انها اكثر المشاعر طبيعية » وشرعية لكن ريشته تخونه ههنا فهل من الصحيح انه يقرن ، في اعماق نفسه الطبيعة بالخطيئة ؟ وهل هو صادق عندما يجعل من الطبيعة مصدر الجرائم ؟ مما لا ريب فيه ان الطبيعة هي امتثالية قبل كل شيء لكنها ، لهذا السبب على وجه التحديد من صنع الله ، او الخير إن شئنا ان الطبيعة هي الحركة الاولى التلقائية الفورية ، الطيبة المباشرة التي لا يرتقها حساب ، انها على الاخص الخليقة قاطبة ، النشيد الذي يصعد نحو الخالق الاكبر ولو كان بودلير طبيعياً لكان ضاع بلا ريب بين جماهير الناس لكنه كان يشعر في الوقت نفسه براحة الضمير وتمم دونما جهد الوصايا الآلهية واقام في بيته وفي العالم بكل راحة ويسر لكن هذا على وجه التحديد ما كان ما لا يريده انه يكره الطبيعة ويسعى الى تدميرها لأنها تصدر عن الله ، تماماً كما يسعى ابليس الى هلاك الخليقة انه يسعى عن طريق الالم وعدم الرضى والرذيلة الى ان يحتل لنفسه مكاناً فريداً في العالم انه يطمح الى وحدة وعزلة الملعون والممسوخ الى وحدة « ضد الطبيعة على وجه التحديد لأن الطبيعة هي كل شيء وفي كل مكان . وحلمه في التصنع لا يتميز البتة عن

رغبته في انتهاك المقدسات انه يكذب يكذب على نفسه عندما يقرن الفضيلة بالبناء الاصطناعي ان الطبيعة بالنسبة اليه هي الخير المتعالي ، وذلك بمقدار ما يصبح هذا الخير معطى واقعاً يحيط به ويتغلغل فيه دون ان يكون قد قبل به ان الطبيعة تظهر للعيان التباس الخير تلك القيمة الخالصة التي تظل كائنة ما دمت لم اخترها بنفسي والاشمئزاز البودليري من الطبيعة يقترن بانجذاب نحوها عميق وهذا الالتباس في موقف الشاعر نجده لدى جميع الذين لم يقبلوا لا بأن يتجاوزوا المعايير كافة باختيارهم لأنفسهم ولا بأن يخضعوا كلياً لأخلاق خارجية ان بودلير الخاضع للخير من حيث يبدو انه واجب يتطلب الانجاز ، يرفضه ويزدريه في الوقت نفسه من حيث انه صفة معطاة من صفات الكون ومع ذلك فإن الخير هو هذا وذاك في آن واحد ما دام بودلير قد اختار دونما احتمال في الرجوع عن قراره بألا يختاره

ان هذه الملاحظات تسمح لنا بأن نفهم العبادة البودليرية للبرود فالبرد اولاً هو بودلير نفسه عقيم مجاني صاف ان كل شيء بارد يرجع اليه صورته وذلك بعكس خياشيم الحياة الدافئة الرخوة لقد تكونت لديه عقدة تجاه البرد فهوية البرد قد اتحدت بالمعدن المصقول وبالحجر الثمين في آن واحد ان البرد يتجسد في تلك المساحات الشاسعة المسطحة التي لا نبات فيها : وهذه

الصحارى المسطحة تشبه سطح مكعب من المعدن ووجه جوهرة ان البرودة والشحوب متداخلان والابيض هو لون البرد ، لا لأن الثلج ابيض فحسب ، بل على الاخص لأن غياب اللون يظهر للعيان اللاخصب والبتولية ولهذا فإن القمر يصبح رمز البرود ان ذلك الحجر الثمين المعزول في السماء يدير نحونا سهوبه الحوّارية ، ويسقط على الارض في برود الليالي ، ضوءاً ابيض يقتل ما ينيره اما نور الشمس فيبدو مغذياً انه مذهب قتيم كالخبز ، ومدفيء اما نور القمر فشبيه ببشرة نقية وبواسطته تتحد الشفافية — صورة الصحو — بالبرود ولنضف ان القمر بنوره المستعار وبمعارضته المستمرة للشمس التي تنيره رمز جديد ببودلير الشيطاني الذي ينيره الخير فيقلبه شراً ولهذا فإن هذا النقاء بالذات مشوب دوماً ان البرد البودليري وسط لا يمكن ان تعيش فيه لا المنويات ولا البكتريات ولا اي جرثومة من جراثيم الحياة انه في آن واحد ضوء ابيض وسائل شفاف قريبان للغاية من ضباب الوعي حيث تنحل المجهريات والجزيئات الصلبة انه ضياء القمر والجو الصافي انه تلك الطاقة الجهادية الكبيرة التي تبعث فينا القشعريرة في الشتاء في اعالي الجبال انــه البخل وعدم القابلية للتأثر ولقد اصاب فابر لوس عين الصواب حين قال في كتابات من السجن » ان الشفقة تريد دوماً ان تبث الدفء . والبرد

البوديري بهذا المعنى عديم الشفقة انه يجمد كل ما يمسه

وبودلير كما هو مفروض يقلد في مواقفه هذه القوة العنصرية إنه بارد مع اصدقائه كثير من الاصدقاء كثير من القفازات انه يلجأ تجاههم الى تهذيب احتفائي وجامد ذلك ان عليه ان يقتل فيه حتماً بذور المودة الحارة والاندفاعات الحية التي تحاول ان تنتقل منهم اليه انه يحيط نفسه عن عمد بأرض مجردة فاصلة لا يستطيع احد ان يتخطاها ويقرأ برودته الخاصة في عيون أقرانه لنتصوره كمسافر يدخل ذات ليلة من ليالي الشتاء الى فندق انه يحمل كل جليد الخارج وكل ثلجه انه ما يزال يرى ويحس لكنه ما عاد يشعر بجسده لقد فقد الحساسية

وبحركة طبيعية للغاية يُسقط بودلير على الآخر هذا البرود الذي يسبح فيه وانما ههنا تتعقد العملية ذلك ان الغير — ذلك الوعي الاجنبي الذي يتأمل ويحكم — هو الذي اصبح مزوداً الآن وعلى حين غرة بقدرة على اشاعة البرد حوله ان نور القمر يصبح نور النظرة انها نظرة ميدوزا التي تجمد وتحجر وليس بمقدور بودلير ان يشكو منها أفليست وظيفة نظرة الآخر ان تحوله الى

---

١ — تقول الاسطورة انها كانت نادرة الجمال لكن مينيرفا غضبت عليها وقلدت عينيها القدرة على تحجير كل من ينظر اليها « هـ. م.

شيء ؟ إلا انه لم يقلد الا النساء وحدهن — وصنفاً معيناً من النساء — هذا البرود اما الرجال فما كان ليتحمل ذلك منهم لأنه لو فعــل ذلك يكون قد اعترف لهم بالتفوق عليه لكن المرأة حيوان دون مرحاض انها في حالة تهيّج وتريد ان توطــأ انها نقيض الداندي وبودلير يستطيع دون ان يتغير ان يتخذ منها موضوع عبادة انها لن تصبح في اي حــال من الاحوال معــادلة انه غير منخدع البتة بالقدرات التي يقلدها اياها ولا ريب في انها بالنسبة اليه كما يقول روايير شيء فائق الطبيعة حي لكنه يعرف تمــام المعرفة انها لا تمثل إلا ذريعة لأحلامه على وجه التحديد لأنها الآخر بصورة مطلقة وغير قابلة للنفاذ اننا ههنا اذن على صعيد اللعب وبالاصل لم يلق بودلير قط امرأة باردة. فلا جان كانت باردة ولا السيدة ساباتييه التي كان يأخذ عليها فرط المرح لقـــد كان بحاجة كيما يحقق رغباته ، يضعها بصورة مصطنعة في حالة برود وسوف يختار ان يحب ماري دوبران لأنها تحب رجلاً آخر وبذلك ستقف منه هذه المرأة الحارة موقف اللامبالاة الباردة وواضح انه مغتبط بذلك مقدماً كما نرى في الرسالة التي كتبها اليها عام ١٨٥٢

« رجل يقول احبك ويبتهل الى امرأة تجيب ان احبك ؟ انا ، ابداً إن لقلبي واحداً ، والشقاء لمن

سيأتي بعده فلن ينال إلا لامبالاتي وازدرائي وهذا الرجل نفسه كيما تتاح له لذة النظر اطول مدة ممكنة الى عينيك سيتركك تحدثينه عن آخر ، ولا تحدثينه إلا عنه، ولا تشتعلين إلا من اجله بالتفكير به ونتيجة كل هذه الاعترافات بالنسبة إلي غريبة فعلاً ، فأنت ما عدت بالنسبة إلي مجرد امرأة مشتهاة بل امرأة محبوبة لصراحتها لهواها لنضارتها لشبابها لجنونها

« لقد خسرت الكثير بسبب هذه الشروح ، فقد كنت حاسمة جازمة الى حد اضطررت معه الى الخضوع فوراً لكنك انت يا سيدتي ربحت الكثير لقد اوحيت لي بالاحترام وبتقدير عميق كوني هكذا دوماً وحافظي على هذا الهوى الذي يضفي عليك جمالاً فائقاً وسعادة فائقة

عودي ارجوك وسأكون وديعاً متواضعاً في رغباتي انا لا اقول انك ستجدينني بلا حب لكن كوني مطمئنة ، فأنت بالنسبة إلي موضوع عبادة ويستحيل علي ان ادنسك »

إن هذه الرسالة بالغة الدلالة واولاً بالنسبة الى قلة صدق بودلير ان هذا الحب المهووس الذي يقسم عليه الأيمان لن يدوم اكثر من ثلاثة شهور لأنه في العام نفسه راح يرسل بطاقات مغفلة من الإمضاء ولا تقل هوساً

الى السيدة ساباتييه انها لعبة ايروتيكية لا اكثر لقد قوبل هذان الغرامان اللذان ألهبا مشاعر بودلير بحماسة كبيرة لكن من يقرأ دفعة واحدة رسالته الى ماري دوبران وبطاقاته الى السيدة ساباتييه في تكرار هـــذا الوله الافلاطوني مظهراً هوسياً وهذا المظهر يتجلى بوضوح اكبر اذا ما رجعنا الى قصيدته المشهورة « الليلة التي قضيتها قرب يهودية كريهة التي يقول كرارون انها تعود الى ايام لوشيت التي رسم فيها بودلير وكان لا يعرف لا ماري ولا السيدة ساباتييه المعالم الاولى لفكرة الثنـــائية الانثوية وبدا حالماً بالملاك البارد قرب الشيطان الحار

– في هذه الحالة ايضاً تمت العملية بالصورة نفسها لقد اختار بودلير اولا بعناية امرأة سعيدة محبوبة ، وغير حرة ومع الاولى والثانية على حد سواء ، يظهر اكبر التقدير نحو العاشق الرسمي والاولى والثانية على حد سواء يعبدها كما يعبد المسيحي ربه » لكن لما كانت السيدة ساباتييه تبدو اسهل منالا وتجازف بعد كل شيء بالسقوط بين ذراعيه فقد ترك رسائله بدون امضاء . وبذلك كان يستطيع ان يتمتع بحرية بمعبوده فيعبدها سراً ويجد جل مناه في لامبالاتها المزدرية وما ان استسلمت له حتى هجرها انها ما عادت تأسر اهتمامه ولن يستطيع ان يتابع لعبته . لقد دبت الحياة في التمثال ، والحرارة في المرأة الباردة. بل يبدو انه عجز عن نيلها فعوض بعجزه عن البرودة التي اصبحت مفتقرة اليها على حين غرة

رحت افكر قرب هذا الجسد المباع
بالجمال الحزين المفتقر اليه مصيري

إني سأقبل نحمية جسدك النبيل
لو ان روعة مآقيك الباردة يا ملكة القسوة

تغيم ذات مساء ببكاء لا جهد فيه

واضح اذن ان المسألة هي مسألة مخطط مسبق للحساسية البودليرية يعمل في الفراغ مدة طويلة ثم يعرف فيما بعد كيف يختار تحقيقات عينية ان المرأة الباردة هي تجسيد جنسي للقاضي

« حين اقترف حماقة ما كبيرة اقول في نفسي يا الهي ! لو تدري بذلك ! وحين افعل شيئاً حسناً اقول في نفسي هذا ما يقربني منها فكرياً ٢

ان برودها يظهر للعيان نقاءها وطهرها فتكون متحررة من الخطيئة الاصلية وفي الوقت نفسه تتحد بوعيها الاجنبي وتصبح رمزاً للموضوعية للتجرد لعدم القابلية للرشوة والفساد وهي في الوقت نفسه النظرة الصافية للماء الزلال والثلج الذائب التي لا تندهش لا تتألم ،

— « اليهودية الكريهة هي سارة لا لوشيت » و « الجمال الحزين » هي جان دوفال (هـ. م.)

٢ — رسالة ١٨ آب ١٨٥٧

لا تعضب ، لكن التي تعيد كل شيء الى مكانه ، وتعقل العالم وبودلير في العالم ومن المؤكد ان هذا البرود الذي طالما تحدث عنه بودلير هو تقليد للصرامة الباردة التي كانت الام تفاجىء بها الطفل وهو يقترف حماقة ما » لكن ليس هو حبه السفاح لأمه الذي يجعله يبحث ، كما رأينا، عن الهيبة لدى النساء اللاتي يشتهيهن بل إن حاجته الى الهيبة والسلطة هي التي قــادته على العكس الى ان ينتخب امه وماري دوبران والسيدة ساباتييــه كقاضٍ وكموضوع للشهوة لقد كتب الى السيدة ساباتييه أن

ما من شيء يعادل عذوبة هيبتها

وهو يعترف بأنه يفكر بها اثناء اقترافه للفجور

حين يدخل الفجر الابيض والقرمزي
الى بيوت الفاجرين مترافقاً بالمثل الاعلى الحالم

يستيقظ بعملية سر منتقم
ملاك بين المتلبدين النائمين

انها كما نرى عملية وهو يكشف عن آليتها في مقطع آخر

« إن ما يجعل العشيقة أعز على النفس هــو الفجور مع نسوة غيرها . إن ما تخسره في المتع الحسية ، تكسبه

في العبادة   ان الشعور بالحاجة الى الغفران يجعل الانسان محبوباً اكثر

اننا نجد ههنا سمة كثيرة الظهور في الافلاطونية المرضية: ان المريض الذي يعبد من بعيد امرأة محترمـــة   ينادي صورتها في اللحظات التي يستسلم فيها الى احط المشاغل حين يكون في المرحاض ، او حين يغسل اعضاءه التناسلية. انها تظهر آنئذ وتنظر اليه بصمت وبعين صارمة   وبودلير يجد جل لذته في هذه الصورة   فعندما يكون راقداً قرب يهودية كريهة   قذرة   صلعاء   مصابة بالزهري؛ يولـّد في نفسه صورة الملاك   والملاك يتنوع   لكن مهما تكن المرأة التي اختارها لتقوم بهذه الوظائف   فهناك دوماً انسان ينظر اليه – في لحظة القذف بالذات بلا ريب وذلك بصورة لا يعود يعرف معها ما اذا كان ينادي ذلك الوجه الطاهر الصارم ليزيد من اللذة التي يلقاهـــا عند العاهرات   ام ما اذا كانت علاقاته السريعة مع العاهرات لا وظيفة لها الا ان تُظهر الى الوجود المرأة المختارة وتضعه على احتكاكه بها   على كل حـــال   ان هذا الشكل الكبير البارد   الأخرس الساكن   هو بالنسبة اليه صورة جنسية ابروتيكية للعقاب الاجتماعي   انه اشبه بتلك المرايا التي تعكس لبعض المرهفين صورة لذائذهم   انه يسمح له بأن يرى نفسه اثناء فعله الحب

لكن اثمه الاكبر أيضاً هو انـــه يحبها لأنها لا تحبه .

واكبر ايضاً اذا اشتهاها ودنسها انها تمثل المحرم ببرودها بالذات واذا اقسم اغلظ الأيمان بأنه يحترمها ، فهذا كي تكون شهواته جرائم اكبر هـــا هوذا من جديد الخطأ وانتهاك المحرمات ان المرأة ههنا انها تسير عبر الغرفة تمشيتها المتمايلة الجليلة التي يهواها بودلير والتي تعي هي وحدها اللامبالاة والحرية انها تجهل بودلير او تكاد واذا ما نظرت اليه صدفة فإنه لا يعدو ان يكون احد الناس في نظرها انه يمر عبر نظرتها

كما يمر الزجاج عبر الشمس

انه يحس بأنه تافه شفاف ما دام جالساً بعيداً عنها، أخرس لكن في اللحظة التي تضعه فيها عينـــا المخلوقة الجميلة في مكانه في العالم فإنه يفقد السيطرة على نفسه، ويشتهيها ويغوص في الخطيئة انه مذنب ، انه مختلف، متمايز وعملاً « الألحاحان المتواقتان » على حين غرة روحه، ويقع في أسر الحضور المزدوج لذينك اللذين لا يفترقان الخير والشر

وفي الوقت نفسه يحوّل برود المرأة المحبوبة رغبات بودلير الى رغبات روحية الى غبطة ولقد رأينا اي نوع من اللذة المكبوتة المخففة بالفكر يبحث عنه لذة اللمس الخفيف السريع هذه هي المتعة التي يعد نفسه

بها في رسالته الى ماري دوبران انه سيشتهيها في وستلفحها كلها رغبته عن بعد دون ان تمسها بل دون ان تشعر بها

« لا تستطيعين ان تمنعي فكري من التحويم حول ذراعيك حول يديك الرائعتي الجمال حول عينيك اللتين تكمن فيهما حياتك كلها حول كل شخصك الجسدي المعبود

وهكذا تحقق برودة الموضوع المحبوب ما يسعى بودلير الى الحصول عليه بكل الوسائل توحّد الشهوة ان هذه الشهوة التي تنساب على أجسام جميلة لامبالية عن بعد، والتي ليست هي إلا مداعبة بالعينين تتمتع بنفسها لأنها مجهولة غير معترف انها فائقة العقم انها لا تثير اي اضطراب لدى المرأة المحبوبة نحن نعرف تلك الشهوة الايصالية التي يتحدث عنها بروست بصدد سوان، والتي تتجلى بألق شديد حتى ان المرأة المشتهاة تظل للحظة من الزمن ندية مبلبلة وانما هذه الشهوة هي التي تمقتها بودلير على وجه التحديد انها تولد البلبلة وتنعش وتدفيء شيئاً فشيئاً عري الموضوع المشتهى الذي كان جامداً في البداية انها شهوة خصبة، سارية ايصالية، حارة، قريبة من الوفرة الطبيعية الدافئة اما شهوة بودلير فهي كلية العقم لا تترك خلفها من نتيجة انها سيدة نفسها من البداية، ذلك ان « جلال المرأة العقيمة البارد » لا يمكن

ان يثير من حب الا الحب الذهني المتصور اكثر منه معاشاً انها نية شهوة شبح شهوة اكثر منها واقعاً. وانما بهذا العدم السري يتمتع بودلير في البداية ذلك لأنه لا يورطه على الاطلاق ولما كان الموضوع المشتهى لا يعي الشهوة المنصبّة عليه فإن تلك البلبلة المقلدة الممثلة اكثر منها محسوساً لا تلزم الانسان فيظل بودلير وحيداً حبيساً في شحه الأوناني واذا ما توجب عليه ان يفعل الحب مع واحد من هذه الجمالات المستعصية المنال – وهذا ما لا يتهيب من تمنيه لأنه يفضل ثورة الشهوة العصبية على إشباعها – فسيكون ذلك بشرط تظل المرأة باردة حتى النهاية لقد كتب المرأة التي تُحب هي المرأة التي لا تتمتع انه يشمئز من منح اللذة اما اذا ظل التمثال ، على العكس ، جامداً كالرخام ، فإن الفعل الجنسي يصبح حيادياً ان بودلير لم يعقد من علاقة إلا مع نفسه ، ولقد بقي وحيداً وحدة المراهق الذي يجلد عميرة واللذة التي شعر بها لم يكن مصدرها اي حدث خارجي وهو لم يمنح شيئاً ولقد فعل الحب مع كتلة من الجليد ولأن السيدة ساباتييه لم تبق من جليد ولأنها كشفت عن جسد حساس اكثر مما ينبغي ، وعن مزاج أسخى مما ينبغي ، فقد فقدت عشيقها في ليلة واحدة

لكن ثمة التباساً ههنا تماماً كما رأينا ان هناك التباساً

في موقف بودلير من الطبيعة إن الفعل الجنسي مع المرأة الباردة تمثل يقيناً انتهاك المحرمات ، الدنس المفروض على الخير والذي يترك الخير على ما كان عليه من طهارة وعذرية وبراءة انه الخطيئة البيضاء والعقيمة ، التي لا تخلف من ذكرى او مفعول والتي تتبخر في الاثير في اللحظة نفسها التي يقترفها المرء فيها فتحقق بالتالي ازلية القانون التي لا تتبدل ابداً الشباب الازلي، شعور الخاطيء الازلي لكن هذا السحر الابيض في الحب لا يستبعد السحر الاسود فلما كان بودلير ، كما رأينا لا يستطيع ان يتجاوز الخير ، فإنه يسعى خلسة الى الاساءة اليه من تحت وهكذا تترافق مازوخية البرود بالسادية ان المرأة الباردة القاضي المهاب الجانب هي في الوقت نفسه ضحية واذا كان فعل الحب يمارس بصورة ثلاثية بالنسبة الى بودلير ، واذا كان المعبود يتجلى له اثناء استسلامه للرذائل مع بغي من البغايا فليس ذلك لأنه بحاجة الى متأمل وشاهد صارم فحسب بل لأنه يريد ايضاً ان يخدعه فهو عندما يدخل في رفيقته المأجورة انما يصيب معبودته انه نحوها يدنسها فلكأن بودلير المشمئز من التأثير المباشر على الكون ، يبحث عن تأثيرات سحرية اي عن بعد لأنها بذلك لا تورطه إلا قليلاً بلا ريب وهكذا تصبح المرأة الباردة المرأة الشريفة التي تثير استقامتها الضحك الى حد ما ، والتي

نحوها زوجها مع العاهرات هذا ما نتبينه في مقطوعة « فانفارلو » فالبرود ههنا يصبح خرقاً عدم خبرة، وحين تحاول المرأة العاشقة ان تردع زوجها عن ممارسات غرامية تأنف منها ، فإن برودها يترافق بالبذاءة وبالطريقة نفسها يتحول الفعل الجنسي الابيض الامتلاك في الفراغ عن بعد دونما دنس للمرأة التي لا تتمتع اقول يتحول احياناً الى اغتصاب محض ان جميع بطلات بودلير شأنهن شأن السيدة اوبيك شأن ماري دوبران يعشقن شخصاً آخر وهذه هي ضمانة برودهن وهذا المنافس السعيد متمتع بجميع المزايا. ففي لا فانفارلو يوصف السيد كوسملي بأنه « نبيل، مستقيم ، معروف « بملامحه الرائعة الجمال » ويتصرف مع جميع الناس بهيبة محببة ولا تقاوم في آن واحد وفي السكير تلك القصيدة التي ظلت مشروعاً تعشق زوجة السكير رجلاً شاباً كثير الغنى ذا مهنة ارفع شأناً مستقيماً معجباً بفضيلته وفي «لا فانفارلو» نقع على حبكة غريبة فالسيدة كوسملي ، التي يخدعها زوجها مع لا فانفارلو تخدع مرة ثانية ــ بناء على طلبها مع الشخص نفسه من قبل بودلير بالذات تحت اسم كرامر ان موضوع هذه الاقصوصة الذي لا يكاد يخفى عن الانظار هو المرأة المستقيمة التي تصبح عرضة للسخرية والاغتصاب السحري في شخص بغي رائعة :

انه البرود المذلول لكن في السكير سينتهز عاملنا بفرح ذريعة غيرتـــه المستثارة ليخفي عن نفسه حقيقة انه حاقد بوجه خاص على زوجته لخنوعها ، لوداعتها، لصبرها لفضيلتها ان مقت الخير صريح ههنا وهذا المقت سيؤدي الى الاغتصاب المباشر وفي نسخة ١٨٥٤ (رسالة الى تيسوران) تحل الجريمة محل الاغتصاب بصورة غير معقولة وكتغطية هوذا مسرح الجريمة لاحظ انها عن سابق تعمد وتصميم الرجـــل يصل الاول الى الموعد لقد اختار المكان بنفسه الاحد مساء طريق او سهل مظلم من بعيـــد ضجيج اوركسترا ملهى الضاحية مشهد حزين كئيب من مشاهد ضواحي باريس. فصل حب بالغ الكآبة بين هذا الرجل وهذه المرأة انه يريد ان تغفر له يريد ان تسمح لـــه بأن يعيش وبأن يعود اليها انه لم يرها قط بمثل هذا الجمال انـــه متأثر منفعل صدقاً انه يكاد يعود عاشقاً انه يشتهيها، يتوسل اليها الشحوب والضمور يجعلانها اشد اثاره وكأنها شراب مهيج ينبغي ان يحزر الجمهور المسأله فبالرغم من ان المرأة المسكينة تشعر بعاطفتها القديمة تتحرك مـــن جديد لكنها ترفض الهوى الوحشي في مثل هذا المكان. وهذا الرفض يغضب الزوج الذي ينسب هذه العفة الى وجود هوى آثم او الى حماية عشيق يجب ان أنهي الامر، غير انني لن اجد الشجاعة ابـــداً انني لا استطيع ان

افعل ذلك بنفسي

ونحن نعرف تتمة القصة انه يرسل زوجته الى نهاية الدرب حيث ثمة بئر تسقط فيه اذا نجت فمن حسن حظها واذا سقطت فيه فإنه الله الذي ادانها

اننا ندرك الغنى الرمزي في هذا الوهم ان الجريمة سابقة التعمد والتصميم وهي التي تعطي الطابع العام للعلاقات بين بودلير والسكير وزوجته (امه ماري دوبران الخ) وكل ما يلي قائم على خلفية جريمة اذن بحيث ان رأفة السكير مسمومة منذ ولادته انه السادي الذي يبكي – وهذه حالة معروفة – على ضحيته. لكن بودلير – السكير يقترب علاوة على ذلك من المرأة الباردة سائلاً اياها الصفح ان موضوع الحب اذن هو موضوع المازوخية الابيض وشحوب المرأة وضمورها يهيجانه (موضوع البرود و اليهودية الكريهة) ونحن نعرف ان النحافة تبدو لبودلير اكثر بذاءة من السمنة. انها لحظة الانتقال الى السادية ان السكير يريد ان يغتصب هذا البرود ان يدنسه ان يصيب من خلال المرأة العشيق السعيد الموفق الذي تمثله الاخلاق (لقد « منعها» من استئناف العلاقات الجنسية مع زوجها) وهو يريد في الوقت نفسه ان يجهز (اغتصاب – جريمة) على تفسخ ذلك الجسد الذي ليس الضمور إلا بدايته انه يريد ان يرغم تلك الوداعة تلك العفة ، على ان تصبح

بذيئة   انه يريد ان تمتلك تلك المرأة فوراً   ههنا ، عند مفرق الطرق ذاك   وكأنها احط الساقطات (ولنلاحظ : بكامل ثيابها   تماماً كما في موضوع لا فانفارلو الفيتيشي). وعندما ترفض   يقتلهـــا   او بالاحرى   ولما كان لا يملك القدرة على إنجاز فعل مباشر   فإنه يضع بين يدي الصدفة والسحر مهمة التخلص منهـــا   (موضوع العجز والعقم   انه لا يعمل بنفسه   بل يدفع بغيره الى العمل). وتأتي الجريمة لتغطي الاغتصاب   لأن هنـاك تعادلاً انفعالياً بينهما ولأن بودلير يصاب بالخوف امامه   في آن واحد ان الاغتصاب ايروتيكي اكثر من اللازم   اما الجريمـــة فتخفي شحنتها الجنسية   انه يقتلها ليلج فيها ويدنسها ليصيب الخير فيها   لكن الدم يفوّت عليه فرصة هـــذا الامتلاك ، وتموت هي من خلفه   في الظلام ، ميتة لم يعدّ هو العدة لها إلا بالكلام   لقد طارد هذا الوهم بودلير مدة طويلة   هذه الجريمة المرائية لا ترضيه تماماً وهذا آسولينو يروي انه تخيل جريمة اخرى « كان بودلير يروي (لروفيير) احد مشاهد الدور الرئيسية   مشهداً شعر فيه السكير   بعد ان قتل امرأته   بعودة الحنـــان اليه والرغبة في اغتصابها   وصاحت عشيقة روفيير مـــن فظاعة المشهد   فقال لها بودلير   مهلك   سيدتي جميع الناس كانوا سيتصرفون مثله   ومن ليسوا على هذه

لعل هذه القصة سابقة في الزمن على رسالته الى تيسوران، ولعل بودلير خوفاً من الرقابة المسرحية ولتحريك خشبة المسرح بلا ريب ايضاً، بدل لحظة ولادة تلك الرغبة بحيث ان المرأة تكون ما تزال حية وهذا امر لا يبدو بعيداً عن الواقع ما دام بودلير قد تصور بالأصل نهايةاخرى الجريمة غير المباشرة، مع ان الرغبة في اغتصاب الاموات لا معنى لهـــا بدون حضور الجثة كان المفروض اذن بالسكير ان يخنق زوجته او يطعنها ثم يغتصبها إن لاحساسية المرأة الباردة وعقمها وبرودها المستعصي المنال تجد ههنا معناها النهائي وتحقيقها الكامل المرأة الباردة انما هي في النهاية جثة وانما امام الجثة تكون الشهوة الجنسية اكثر الشهوات اجراماً وتوحداً في آن واحد كما ان الاشمئزاز من هذا اللحم الميت سيدخل الى اعماقه عدماً عميقاً وسيجعله اكثر عناداً واكثر تصنعاً «سيبرده» إن جاز التعبير وهكذا نجد البرود الذي هو في الاصل تعقيم عن طريق البرد نجد في النهاية مناخه الحقيقي الذي هو الموت الصورة الشخصية لهذا البرود تتأرجح بقدر ما يتأرجح بودلير نفسه بين المازوخية والسادية بين المعدن العمري المجمد غير القابل للفساد وبين الجثة التي هي في سبيلها الى فقدان حرارتها الحيوانية غياب الحياة او

---

١ – نقلا عن أ. كريبيه في « شارل بودلير » .

تدمير الحياة ان الفكر البودليري يتراوح بين هذين الحدين الأقصيين

وبعد هذه الملاحظات لا يبقى علينا ان نقول الشيء الكثير بصدد داندية بودلير فالقاريء سيتبين من تلقاء نفسه علاقتها بالمذهب المضاد للطبيعة والتصنع والبرود إلا ان ثمة بعض ملاحظات لا بد ان نسجلها ولقد اشار بودلير بنفسه الى ان الداندية هي اخـــلاق جهد إن جميع الشروط المادية المعقدة التي يخضع لها جميع من هم كهنة الداندية وضحاياها في آن واحد ، بدءاً من التسريح المتقن للشعر في كل ساعة من ساعات النهار والليل الى اخطر الالعاب الرياضية إن هي إلا رياضة تزيد من قوة الارادة وانضباط النفس وهو يلفظ بنفسه بهذا الصدد كلمة الرواقية انه يفرض هذه القواعد الدقيقة المتحذلقة على نفسه اولاً كيما يلجم حريته التي لا يسبر لها غور انه يقنِّع ورطته بتجديده المستمر لهذه الالتزامات انه داندي لأنه يخاف من نفسه قبل كل شيء ولنلاحظ ان الداندية بمجانيتها بطرحها الحر للقيم والالتزامات ، قريبة من اختيار اخلاقي ويبدو ان بودلير قد اشبع على هذا المستوى ، تلك الصبوة التي اكتشفها في نفسه من البداية لكنه اشباع مغشوش فالداندية ليست الا الصورة الموهنة للاختيار المطلق للقيم اللامشروطة والواقـــع ان

ر — « الفن الرومانتيكي » رسام الحياة الحديثة المادة ٤ « الداندي ».

الداندي لا يتخطى حدود الخير التقليدي انه مجاني بلا ريب ، لكنه ايضاً عديم الاذى بصورة مطلقة انـــه لا يقوض اي قانون من القوانين المقررة انه يريد نفسه لامجدياً وهـــو لا يفيد شيئاً بلا ريب لكنه لا يضر ايضاً والطبقة الحاكمة تفضل دوماً الداندي على الثوري ، تماماً كما ان بورجوازية لوي – فيليب تقبل بتطرف الفن للفن اكثر مما ترضى عن الادب الملتزم لهيغو وصاند وبيير لورو. ان الداندية لعبة اطفال ينظر اليها الراشدون بتسامح انها التزامات اضافية يفرضها بودلير على نفسه علاوة على التزامات المجتمع انه يتكلم عنها بأبهة بوقاحة ، لكن ايضاً مع ابتسامة خفيفة على طرف شفتيه انه لا يتمنى ان يُحمل على محمل الجد فعلاً

بيد ان هذه القواعد الدقيقة اللامجدية تمثل عـــلى وجه الخصوص مثله الاعلى في الجهد والبناء ان نبل بودلير وعظمته الانسانية يتأتيان بالدرجة الاولى من اشمئزازه من اطلاق الحرية للنفس الخمول والاهمال والانفراج تبدو له اخطاء لا تغتفر ان على الانسان ان يلجم نفسه ان يمالكها ان يركز افكاره وهو يلاحظ بعد امرسون ، ان « البطل هو ذاك الذي يركز افكاره دوماً » ولقد اعجب لدى ديلاكروا « بالإيجاز وبنوع من الكثافة لا ادعاء فيه وهما نتيجة طبيعية لتركيز جميع القوى الروحية على نقطة معينة » ونحن نعرف الآن بودلير بما

فيه الكفاية حتى نفهم معنى هذه العبارات لقد شعر منذ ولادته ، في عصر حتمي النزعة ، بحدس ان الحياة الروحية ليست معطاة بل تخلق نفسها بنفسها ولقد سمح لـه صحوه التأملي بأن يصوغ المثل الاعلى في امتلاك الذات ان الانسان هو حقاً نفسه في اقصى درجات التوتر في الخير والشر على حد سواء ان جهده الاول يجب ان ينصب على تملك نفسه بكل « تمايزها » فعندما يمسك الانسان نفسه ويلجمها ، تولد تحت الاصابع واللجام الذات التي يريد امتلاكها والداندية من هذه الزاوية هي مرحلة في مشروع بودلير المجهض دوماً ـ نرجس الذي يحاول ان يرى صورته في مياهـه الخاصة ويلتقط فيها انعكاسه إن الصحو والداندية وغيرهما ليست الا اشكالاً يتخذها ذلك الزوج « الجلاد ـ الضحية » ويحاول الجلاد عن طريقها عبثاً ان ينفصل عن ضحيته وأن يكتشف نفسه في الملامح المتألمة التي تقدمها له ان المجهود المبذول في سبيل الوصول الى الازدواج يأخذ ههنا اوضح شكل له على المرء ان يكون موضوعاً تجاه ذاته ان يتزين ان يصبغ نفسه ليستطيع ان يستولي على الموضوع ويتأمله طويلاً ويذوب فيه وهذا مـا يجعل بودلير يبدو دائم التوتر انـه بعيد عن اطلاق الحرية للنفس بعده عن التلقائية . ان سأمه المرضي ابعد ما يكون عن شرود الروح إن علينا ان نرى فيه ، على العكس ، عدم رضى رجولياً ،

تجاوزاً محموماً وعنيداً لقد اصاب بلان عين الصواب حين كتب « ان استحقاق بودلير هو انه اعطى ضيق النفس وقعاً أصح عندما جرّده من الصيغ الآسنة ان الجديد عنده هو انه صور الصبوة على انها « توتر القوى الروحية » لا على انها انحلال وفي النهاية ان ما يميز بودلير عن الرومانتيكية هو انه حول ضيق النفس الى مبدأ من مبادىء الفتح والسيطرة [1] وعلى هـــذا فان الصيرورة النفسية لا يمكن ان تكون الا عملية شغل متواصل بالذات عليه ان يزعج نفسه ويقهرها حتى يكون دوماً في اعلى مستوى من الشعور ذلك ان الشعور عنده ليس هو الاستسلام الجيدي [2] للحظة بل هو وضع الاستعداد للمعركة وكل ما هنالك ان هذه العمليات الداخلية لا يمكن ان يكون هدفها النجاح في تنفيذ مشروع نافع فمن الواجب ان تظل مجانية كما ان عليها ألا تؤدي الى طرح علامات الاستفهام بصدد الاخلاق الثيوقراطية [3] عليها اذن ان تقتصر على مجانية الداندية الخالصة المحض

وعلاوة على ذلك ، فإن الداندية طقس من الطقوس ، ولقد ألح بودلير على هذه الفكرة لقد صرح انهـــا عبادة الأنا واعلن انه كاهنها وضحيتها » لكنه

- بلان « بودلير » — ص ٨١ — ٨٢

٢ — نسبة الى اندريه جيد (م . م)

٣ — الثيوقراطية : حكم رجال اللاهوت (م م)

يزعم في الوقت نفسه وبتناقض ظاهري انه يدخل عن طريق الداندية الى ارستقراطية شديدة الانغلاق علــى نفسها » ومما يزيد في صعوبة الوصول اليها انها قائمة على اثمن المواهب وأصلبها ، وعلى الهبات السماوية التي لا يمكن ان يوفرها المال والعمل » وبذلك تصبح الداندية « مؤسسة خارجة عن القوانين لها قوانين صارمة تخضع لها جميع رعاياها

ان الطابع الجماعي لهذه المؤسسة ينبغي ألا يخدعنا . ذلك انه إذا كان بودلير يصورها لنا انها منبثقة عن طبقة مغلقة على نفسها فإنه يؤكد مراراً عدة ان الداندي انسان مخلوع طبقياً والواقــع ان الداندية البودليرية رد فعل شخصي على مشكلة الوضع الاجتماعي للكاتب ففي القرن الثامن عشر كان وجود ارستقراطية الدم والنسب يبسط كل شيء كان الكاتب المحترف مهما يكن اصله سواء أكان ابن حرام ام ابن صانع سكاكين ام ابن رئيس طائفة الملاطين ، يعقد الصلات المباشرة معها ، متخطياً البورجوازية كان يعيش تابعاً لطبقة النبلاء التي كانت تؤويه او تسجنه وكان يستمد منها عائداته وكرامته الاجتماعية على حد سواء وبذلك كان يصبح هو بدوره « ارستقراطياً » كان يسري فيه شيء من روحها ، فيشاركها عطالتها عن العمل وكان المجد الذي يطمح الى الوصول اليه انعكاساً للخلود الذي تستمده الاسرة الملكية

من وراثة اللقب وحين تنهار الطبقة النبيلة ، يفقد الكاتب سيطرته على اعصابه امام سقوط حُماته ويتوجب عليه ان يبحث عن تبريرات جديدة إن معاشرته لطائفة الكهنة والنبلاء المقدسة كانت تخلعه طبقياً فعلاً ، اي أنه كان ينفصل عن الطبقة البورجوازية التي هو خارج منها وينقطع عن اصوله ويتلقى معاشه من طبقة ارستقراطية دون ان يتمكن من اخذ مكانه في حضنها كان يشعر ، هو التابع في عمله وحياته المادية لمجتمع رفيع مغلق عاطل عن العمل وطفيلي ، يكافىء تعبه بهبات تقررها النزوة ولا صلة لها ملموسة بالعمل الذي يقوم به والغارق في الوقت نفسه عن طريق عائلته وصداقاته وكيفيات حياته اليومية في حضن طبقة بورجوازية فقدت القدرة على تبريره اقول كان يشعر بأنه متمايز معلق في الهواء بلا جذور ، أشبه بساقي الآلهة الذي تحمله مخالب النسر كان يشعر باستمرار انه اعلى مستوى من بيئته ووسطه لكن بعد الثورة تستولي الطبقة البورجوازية هي نفسها على السلطة وآنذاك يفترض فيها بموجب المنطق السليم ، ان تقلد هي نفسها الكاتب كرامته الجديدة بيد ان هذه العملية لن تكون ممكنة إلا اذا قبل الكاتب بأن يعود الى حضن البورجوازية والحال ان هذا غير وارد فهناك اولاً مثنا عام من الرعاية الملكية علمته ان يحتقرها ، كما انه تعلم هو الطفيلي العائش على حساب طبقة طفيلية ، ان

يعتبر نفسه من الكتبة المنهمكين في الفكر الخالص
الخالص واذا ما عاد الى طبقته فإن وظيفته تتبدل
جذرياً فالبورجوازية ليست بطبقة طفيلية وإن كانت
مضطهدة انها تسرق العامل ، لكنها تشتغل معه وابداع
عمل في داخل مجتمع بورجوازي يصبح عبارة عن عرض
خدمات وعلى الشاعر ان يقدم موهبته لطبقته شأنه
شأن المهندس او المحامي إن عليه أن يساعدها على وعي
نفسها وأن يساهم في تطوير الاساطير التي تسمح لها
باضطهاد البروليتاريا وسوف يكرسه المجتمع البورجوازي
بالمقابل لكنه يخسر في هذه المبادلة انه يتنازل عن
استقلاله ويتخلى عن تفوقه يقيناً انه يشكل جزءاً من
نخبة لكن هناك ايضاً نخبة للأطباء نخبة للأعيان
ان التسلسل يتكون داخل الطبقة حسب الفعالية الاجتماعية
ونقابة الفنانين لا تحصل إلا على مكانة ثانوية ، فوق
الجامعة بقليل

وهذا ما لا يستطيع معظم الكتّاب ان يقبلوا به فكم
من مستائين ومتمردين مقابل كل كاتب من امثال اميل
اوجييه [1] الذي ينفذ عقده بحذافيره ؟ ما العمل ؟ إنه ما
من احد بالطبع ، يفكر بأن يطلب تبريره من البروليتاريا
ـ الأمر الذي سيؤدي الى انخلاع طبقي حقيقي لكن بالاتجاه

---

[1] مؤلف مسرحي فرنسي (١٨٢٠ - ١٨٨٩) . كتب كوميديات اجتماعية
دفاعاً عن الاخلاق البورجوازية . (هـ . م)

المعاكس كما انه ما من احد يملك الشجاعة ليطالب بالعزلة الكبرى الحرة باختيار ذاته من خلال القاق كما كان مصير ونصيب لوتريامون ورامبو وفان غوخ ان البعض من امثال الشقيقين غونغور او ميريميه سيبحث عن نعم ارستقراطية وصولية وسيحاول ، دونما رضى حقيقي بأن يلعب لدى الطبقة النبيلة النابوليونية الدور الذي كان يلعبه اسلافه لدى حاشية الملك لويس الخامس عشر . لكن الغالبية العظمى منهم ستسعى الى تحقيق عملية انخلاع طبقي رمزي ان فلوبير عل سبيل المثال الذي عاش حياة ريفي بورجوازي غني يطرح قبلياً شرط الافلات من البورجوازية انه ينفذ قطيعة اسطورية مع طبقته هي صورة موهنة للقطيعات الحقيقية التي كانت تتم في القرن الثامن عشر على إثر دخول الكاتب البورجوازي الى صالون مدام دي لامبير او ارتباطه بصداقة الدوق دي شوازول انه سيمثل بالاحرى هذه القطيعة تمثيلاً ، دونما لحظة راحة ، باتخاذه مواقف رمزية إن على اللباس والغذاء والعادات والكلام والذوق والمشارب ان تكون بالضرورة تقليداً لانفصال يمر في غالب الاحيان غير منظور وبهذا المعنى نجد صورة من العبادة البودليرية للتمايز لدى كاتب مثل فلوبير او غوتييه لكن الانخلاع الطبقي الرمزي — الذي يهدد بأن يقود الى الحرية والجنون — يجب ان يترافق باندماج هو الآخر اسطوري بمجتمع يكون

اشبه باستدعاء للارستقراطية الزائلة وهذا معناه ان الجماعية التي سيدخل اليها الفنان يجب ان تستعيد سمات الطبقـــة الطفيلية التي كرسته في الماضي وان تأخذ مكانها بحزم، خارج دائرة الانتاج الاستهلاك على صعيد النشاط غير المنتج لقد اختار فلوبير ان يمد يده من فوق العصور الى سرفانتس ورابوليه وفيرجيل وهو يعرف انه بعد مئة عام بعد الف عام سيأتي كتّاب آخرون ليمدوا له ايديهم انه يتخيلهم بسذاجة على انهم كمؤلف دون كيشوت طفيلي اسبانيا الملكية ، وكمؤلف «غارغانتوا» طفيلي الكنيسة ، وكمؤلف « الانياذة [2] طفيلي الامبراطورية الرومانية وهو لا يخطر له فكرة ان دور الكاتب بالذات قد يتغير مع مجيء العصور القادمة ومع التفاؤل الساذج الذي يرافق تصريحاته الاكثر كآبة يختلق بدعة ماسونية هو واثق انها بدأت مع اول انسان وانها ستنتهي مع آخر انسان هذه الجمعية شبه السرية المؤلفة في غالبيتها من الاموات والاطفال الذين سيولدون مرضية تماماً للفنان انها مؤسسة اولاً على نمط ما يسميه دوركهايم التضامن الميكانيكي وبالفعل إن الفنان الحي يحمل

---

١ — قصة مشهورة لرابليه بطلها مارد محارب ؛ ويدعو فيها المولف الى السعادة والسلام والتربية (هـ. م)

٢ — ملحمة لفيرجيل يقلد فيها « ألالياذة و « الاوذيسة » ، مؤلفة من اثني عشر نشيداً . (هـ. م)

في نفسه ويلخص الجمعية كلها في كل لحظة من حياته كما ان الانسان النبيل يحمل معه في كل مكان ويجسد في نظر الجميع امرتـه وأسلافـه لكـن الشرف في الحالة الاخيرة قائم على رابطة من التضامن العضوي فالنبيل يحمل التزامات محددة ومتنوعة تجاه امواته وذريته القادمة انهم موجودون عن طريقه ، وهو يحمل عبئهم ، ويستطيع ان يسود سمعتهم او يبيضها وعلى العكس فإن فيرجيل ليس بحاجة البتة الى فلوبير ومجده في غنى عن كل مساعدة فردية وفي المجتمع الاسطوري الذي اختاره الكاتب ، يتجاوز كل عضو فيه مع سائر الآخرين من غير ان يلتزموا بعمل مشترك انهم متجاورون جنباً الى جنب كالاموات في المقبرة وليس في هذا ما يدهش داموا امواتاً فعلاً لكن هذه الجمعية المتحررة من الالتزامات تفعم مع ذلك فلوبير بهباتها انها ترفع بالفعل النشاط الادبي الى مستوى الوظيفة الاجتماعية إن هؤلاء الاموات الكبار الذين عاش معظمهم حيـاة عزلة وقلق ودهشة ، والذين ما كانوا يتوصلون الى ان يتصوروا انفسهم تمام التصور لا كتاباً ولا فنانين والذين ماتوا كالجميع ، ككل انسان بلا يقين ، اقول إن هؤلاء الاموات الكبار ينسب اليهم من الخارج — لأنهم مروا ولأن حياتهم تبدو كقدر — لقب الشاعر الذي كانوا يطمعون فيه دون ان يتيقنوا من انهم قد وصلوا اليه وبدلاً من ان يُعتبر

هذا اللقب هدف جهودهم يُعتبر على العكس طبعاً من طباعهم انهم لم يكتبوا ليصبحوا كتّاباً بل كتبوا لأنهم بالأصل كتّاب ومن اللحظة التي يشبّه فيها فلوبير نفسه بهم ويعيش اسطورياً في عشرتهم ، يتيقن من امتلاكه لهذا الطبع وبذلك تبدو اهتماماته له وهي ابعد ما تكون عن كونها نتيجة اختيار مجاني وخطر كتظاهرات لطبيعته. لكن لما كان الامر يتعلق علاوة على ذلك بمجتمع من المختارين بطائفة شبيهة بأهل الدير فإن طبيعة الكاتب هذه تبدو ايضاً كممارسة للكهنوت ان كل كلمة يخطها فلوبير على الورق هي اشبه بلحظة مناولة القديسين [1] إن فيرجيل ورابليه وسرفانتس يعاودون الحياة عن طريقه ويتابعون الكتابة بريشته وبذلك يكون فلوبير ، بامتلاكه لهذه الصفة الغريبة التي هي استعداد مسبق وكهنوت طبيعة ووظيفة مقدسة في آن واحد قد انسلخ عن الطبقة البورجوازية وغرق في ارستقراطية طفيلية تتولى تطويبه لقد اخفى عن نفسه مجانيته وحرية اختياره غير القابلة للتبرير لقد استبدل الطبقة نبيلة الساقطة بجمعية روحية، فحافظ بذلك على رسالته رسالة الكتبة

ولقد اختار بودلير ، هو الآخر بلا ريب ان يدخل الى هذه الجمعية انه يتكلم مئة مرة الف مرة في كتاباته عن الشاعر وعن الفنان « لقد برر نفسه

---

١ – المناولة عند المسيحيين هي تناول الخبز والخمر اثناء القداس كرمز لجسد المسيح ودمه (هـ. م.)

وكرّسها عن طريق كتاب الماضي بل لقد اوغل في ذلك اكثر من غيره إذ عقد اواصر صداقــة مع ميت ان علاقته الطويلة بإدغار بو هدفها العميق إدخاله الى هـذه الجمعية الصوفية لقد قيل ان التشابه الباعث على البلبلة بين حياة الشاعر الاميركي وحياته هو الذي جذبه هذا صحيح لكن هذا التماثل في القدر والمصير لم ينل اهتمامه إلا لأن بو قد مات فلو كان مؤلف « اوريكا » حياً، لما كان إلا جسداً مبهماً كجسده فكيف السبيل الى الجمع بين مجانيتين غير قابلتين للتبرير اما وقد مات فإن وجهه يكتمل ويتحدد واسم الشاعر والشهيد ينطبق عليه بصورة طبيعية ووجوده قدر ومصير وتعاساتـه تبدو نتيجة لاختيار إلهي مسبق وانما ههنا يأخذ التشابه كل قيمته انه يجعل من بو صورة لماضي بودلير شيئاً اشبه بيوحنا المعمدان الممهد لهذا المسيح الملعون ان بودلير ينحني على السنوات الماضيات ، على اميركا البعيدة المكروهة ، ويكتشف على حين غرة انعكاسه في مياه الماضي الرمادية هذه هي كينونته على حقيقتها ويتكرس وجوده فوراً لكنه يختلف عن فلوبير في عدم حاجته الى جمعية الفنانين قاطبة (بالرغم من ان قصيدته المنائر هي إحصاء لجمعيته الروحية) انه فردي متطرف وفرديته تتجلى في اختياره هذا ايضاً والمختار هو ممثل النخبــة قاطبة . وأما ان علاقات بودلير مع بو لها هي ايضاً طابع

مناولة القديسين فإن قراءة صلاة « صواريخ » المشهورة تكفي لتثبت ذلك

علي ان اؤدي كل صباح صلاتي لله منبع كل قوة وكل عدالة ولأبي ولماريت وبو باعتبارهم شفعائي

وهذا يعني ان جامعة الفنانين العلمانية قد اخذت في روح بودلير الصوفية قيمة دينية عميقة تصبح كنيسة ان الطفيلية التي يتحسر عليها بودلير ويحاول ان يعيد بناءها هي طفيلية ارستقراطية اكليريكية وكل عضو في هـــذه الارستقراطية يجد في العضو الآخر (او في جميع الاعضاء، وذلك حسب مزاج بودلير) صورة مطوبة عن وملاكاً حارساً

لكن هذا المشهد الروحي لا يمكن ان يرضي مؤلفنا كل الرضى ذلك ان من النتائج الاولى للتناقض الذي يلازم اختياره المبدئي أن شعور عدم الرضى يعاوده في اللحظة التي ينال فيها اللقب الذي يطمح فيه انه «الشاعر» وليس هو « الشاعر » في آن واحد. واذا ما رأى نفسه وحيداً بائساً، مسحوقاً تحت ثقل مسؤوليه اختياره الذاتي اللامحدودة، فإن الرغبة تعاوده بسرعة في الانتماء الى نظام ديري ، لكنه ما إن يدخل الدير الذي بناه بنفسه حتى يرغب في الافلات منه ويرفض ان يكون مجرد راهب شبيه بسائر الرهبان. إن نشاط الفنان لا يبدو له بصورة ما ، مجانياً بما فيه

الكتابة لدى الرسام ، لدى الشاعر ، هوساً الى الرؤية والوصف يبدو له عامياً وهذا ما يتضح بجلاء من مقطع من دراسته عن كونستانتان غيز

قلت لكم انني انفر من تسميته فناناً خالصاً محضاً ، وانه كان هو نفسه يدفع عنه هذا اللقب بتواضع مشوب بحياء ارستقراطي انني سأسميه بالاحرى داندي ولي اسباب طيبة تدفعني الى ذلك ذلك ان كلمة «الداندي» تنطوي على زبدة الطبع الحسن وعلى فهم بارع لكل آلية هذا العالم الاخلاقية لكن الداندي يطمح من جهة اخرى الى اللااحساسية وانما عند هذه النقطة ينفصل السيد غيز الذي يسيطر عليه هوس لا يروى له من ظمأ ، هوس الرؤية والاحساس ، اقول انما عند هذه النقطة ينفصل السيد غيز بعنف عن الداندية

انه لواضح بالنسبة الى من يقرأ بين السطور الداندية تمثل مثلاً اعلى اسمى من الشعر انها عبارة عن جمعية من الدرجة الثانية مشادة على نمط جمعية الفنانين التي وضع اسسها فلوبير وغوتييه ونظريو الفن للفن انها تستعير من هذا النموذج افكار المجانية والتضامن الميكانيكي والطفيلية لكنها تزايد بصدد شروط الانتساب الى هـــذه الرابطة انها تبالغ في الطباع الاساسية للفنان تبالغ فيها الى الحد الاقصى وتستبدل ممارسة المهنة الفنية التي هي ممارسة نفعية اكثر مما ينبغي ، بطقس تسريح الشعر ، وتحول

عبادة الجمال التي تنتج آثاراً مستقرة دائمة الى حد
لأن الاناقة عرضية عقيمة زائلة ان فعل الرسام
الخلاق يأخذ اذا ما افرغ من جوهره
مجاني تماماً بالمعنى الجيدي بـــل عبي
الابتكار الجمالي الى تضليل ويتحجر هوس الخالـــق
اللاحساسية كما ان تعلق بودلير بالموت وحبه الانحطاط
وهو في ذلك عهد الطريق امام باريس هذا[1]
والحب اللذان يرافقان عنده عبادة الفردية يدفعان بـــه
الى رفض ما ينادي ويطالب بـــه فلوبير انه
جمعية تدوم ما دام الجنس البشري فهذه الجمعية كيما
تكون لها ميزة الندرة والوحدانية ، ينبغي ان يكون مقدراً
عليها الزوال في حضن البشرية بالذات ولهذا فإن الداندي
ستكون آخر سطوع للبطولة في ايام الانحطاط ستكون
شمساً آفلة وبكلمة واحدة ان بودلير يتجاوز جمعية
الفنانين الارستقراطية لكن القديمة العهد ليؤسس رهبانية
نظامية تمثل الروحية الخالصة وهو يزعم انه ينتمي الى
كلتا الجمعيتين في آن واحد باعتبار ان الثانية ليست
بالاصل إلا خلاصة الاولى وزبدتها وهكذا يكون هذا
المتوحد الذي يخشى الوحدة قد سوى مسألة العلاقات الاجتماعية
بتخيله روابط مشاركة سحرية بين المنعزلين الذين مات

---

١ – موريس باريز كاتب فرنسي (١٨٦٢ – ١٩٢٣) دعا الى
عبادة الارض والموتى والقومية (هـ. م)

معظمهم لقد خلق طفيلي الطفيليين الداندي الطفيلي التابع للشاعر الذي هو نفسه طفيلي على طبقةمن المضطهدين. لقد تجاوز الفنان الذي ما يزال يسعى الى الخلق ليرسم مثلاً اعلى اجتماعياً قائماً على العقم المطلق ، تتحد فيه عبادة الأنا بحذف الذات ولهذا امكن ا ج كريبيه ان يقول مصيباً ان الانتحار هو اسمى تكريس للداندية بل اكثر من ذلك ان الداندية ناد للمنتحرين ليست حياة كل عضو من اعضائه الا ممارسة لانتحار دائم

الى اي حد حقق بودلير توتر الروح هذا الى اي حد اكتفى بأن يحلم به ؟ هذا يصعب تبيانه وليس ذلك لأنه شكك في مجهوده الدائم اجل ان تكون ثيابه صارمة الاناقة ومن اجل من يسرح شعره كل ساعة من ساعات النهار والليل ويغسل وجهه بصورة لا يؤخذ معها عليه مأخذ ان الاغتسال الذي يطهر ويبرد ويجدد باب له بالاصل عنده قيمة رمزية عميقة للغاية فالانسان الذي يغتسل يلمع كما يلمع المعدن تحت الشمس، والماء الذي ينساب على الجسم يمحو ذكرى الاخطاء الماضية ويقتل الحيوات الطفيلية التي تتعلق بجلده، لكني افكر بالاحرى بتزوير بارع دائم لمجهوده فالمفروض مبدئياً في الداندي ان تكون سيماؤه وهيئته كلها رجولة وتعشقاً ارستقراطياً «ان الكمال (في نظر الداندي) يكمن في البساطة المطلقة»[1]

---

١ — « الفن الرومانتيكي » لبودلير

لكن ماذا يعني في مثل هذا الحال ذلك الشعر المصبوغ ، وتلك الأظافر الانثوية وتلك القفازات الوردية وتلك الضفائر الطويلة التي سيحكم عليها اي داندي حقيقي سواء أكان بروميل[1] ام اورسوي بابتذال الذوق ؟ إن لدى بودلير انتقالاً غير محسوس من رجولة الداندية الى نوع من الغنج الانثوي الى تعلق انثوي بالزينة . لنقرأ هذه الصورة المكثفة عنه التي هي اقرب الى الحقيقة واكثر حياة من صورته الطبيعية بكامل حجمه « كان بودلير يجتاز كومة التراب المتجمعة امام باب نامور غخطى بطيئة ومشية داندية بعض الشيء ، متجنباً بحذر الوحل ، وواثباً، فيما اذا كانت السماء تمطر على اطراف حذائه اللامـع الذي كان يحب ان يتمرّى فيه وكانت تبـدو عليه بذقنه الحليقة توها وبشعره المرسل خلف اذنيه على شكل حلزون وبياقة قميصه الرخوة الناصعة البياض البارزة مـن فوق ردائه الطويل اقول كانت تبدو عليه سيماء القسيس البروتستانتي والممثل في آن واحد [2] »

ان هذه العبارات توحي بأنه كان لواطياً أكثر مما كان داندياً ذلك ان الداندية هي ايضاً دفاع ضد الآخرين ان بودلير يستطيع ان يلعب مع بعض المختارين الذين

---

[1] — جورج بروميل داندي انكليزي (١٧٨٨ ١٨٤٠) كان يلقب ملك العالم » (هـ. م)

٢ — كاميل بومونتيه . نقلا عن كريبيه « شارل بودلير » — ص ١٦٦.

يعرفهم لعبة الخير والشر الداعرة انه يعرف الى اي حد يستطيع ان يستسلم لأحكامهم ويتدلل على ازدرائهم وكيف يمكنه في كل لحظة ان يفلت برقة جناح ، ويعود من جديد بعكس الصورة التي يتركها بين ايديهم حرية تفلت من كل حكم وهذا لأنه تعـــلم مبادئهم وعاداتهم انه يستطيع ان يكرههم او يخشاهم وهـــو يشعر على كل حـــال بالراحة معهم لكن الآخرين جمهرة الآخرين الغفل من هم ؟ انه لا يعرف مـــن ألفة معهم البتة انهم حكام بالقوة لكنه يجهل القواعد التي تستند اليها احكامهم ان طغيان الوجه الانساني » قد يكون اقل مدعاة للخوف لو انه لم تكن هناك عينان راصدتان في كل وجه من هذه الوجوه ان ثمة عيوناً في كل مكان ووراء هذه العيون وجدانات ان جميع هذه الوجدانات تراه تستولي عليه بصمت وتهضمه وهذا معناه انه يظل في اعماق القلوب مصنفاً محزوماً معنوناً باسم يجهله.ان ذلك الرجل الذي عمر والذي يلقي نحوه بنظرة لامبالية ، قد يكون جاهلاً بـ تمايزه » المشهور، ولعله لا يرى فيه الا بورجوازياً يشبه سائر البورجوازيين.. وما دام هذا التمايز بحاجة الى اعتراف الغير به حتى يوجد وجوداً موضوعياً فإن المتسكع اللامبالي يساهم بمجرد نظرته البسيطة في تهديمه ان هذا الآخر يعتبره عـــلى العكس ، مسخاً ، فكيف يتقي هـــذا الحكم وكيف

يؤكد انه قادر على الافلات منه ما دام يجهل دوافعه ؟ هذا هو البغاء الحقيقي ان الانسان يخص جميع البشر ان المثل الشعبي الذي يسلم للكلب بالحق في النظر الى أسقف له نتائج رهيبة ذلك انه لا وجود لأساقفة في نظر الكلب كتب بودلير « في المسرح في الحفل الراقص ، يتمتع كل واحد بالجميع » وهكذا يستطيع أي صبي ان يتمتع ببودلير انه بلا دفاع عارٍ تحت الانظار وهكذا يكون بودلير رجل الجموع الرجل الذي يخاف اعظم الخوف من الجموع في الوقت نفسه وهذا واحد من التناقضات التي تعودنا عليها وبالفعل ان اللذة التي يجدها في منظر مباراة شعبية كبيرة ليست الا لذة النظر ومن ينظر ، والتجربة اكبر دليل، ينس انه يمكن ان يُنظر اليه ان تلاشي الذات الذي يتحدث عنه بودلير في هذا الصدد شيء لا علاقة له بمذهب الوهية الكون [1] انه لا يضيع في الجموع لكنه يصبح، هو الذي يراقب دون أن يعتقد انه مراقب يصبح تجاه ذلك الموضوع المتحرك المزركش حرية تأملية خالصة وبالفعل ان المتسكع يجد منظر الشارع محيياً لأن المارة المنهمكين المنغلقين على همومهم المركزين افكارهم على اعمالهم ، لا يعيرونه اي اهتمام لكن يكفي ان يرفع

---

[1] – هو المذهب الذي يرى ان كل مظاهر الكون من نبات وجماد هي تمجيد للإله . (هـ. م)

احد هؤلاء المارة رأسه على حين غرة حتى يصبح المراقِب مراقَباً والمطارِد مطارَداً ان بودلير يمقت الاحساس بأنه طريدة انه لعذاب له ان يدخل الى مقهى الى مكان عام ، لأن الانظار تتجه جميعاً في مثل هذه الحال، نحو الشخص الداخل فلا يستطيع هذا الاخير وهو ما يزال مبهوراً غير معتاد على المكان ان يدافع عن نفسه بالنظر الى الذين ينظرون اليه انه يهوى ان يكون معه رفيق في كل مكان لا لأن «الشاعر والمؤلف المسرحي بحاجة دوماً الى جمهور كما يعتقد آسولينو فحسب بل على الاخص حتى تتشربه عيون معروفة وعي غير مؤذٍ يحميه من الوجدانات الاجنبية وبكلمة واحدة انه شديد الخجل والتحولات التي تطرأ عليه عندما يحاضر معروفة فهو يتعلثم عندما يقرأ ويسرع في كلامه بصورة يصبح معها غير مفهوم ، ويثبت عينيه على اوراقه، ويبدو في اعلى درجات الالم. ان دانديته دفاع عن خجله. ونظافته المبالغ فيها. وتصنع هندامه هما نتيجة ليقظة دائمة، وتمثلان رفضه ان يفاجئه احد في وضع خاطىء انه يريد ان يكون خالياً من كل عيب تحت الانظار وهذه العصمة المادية ترمز الى عدم امكانية اخذ اي مأخذ اخلاقي عليه فكما ان المازوخي لا يستسلم للاذلالات إلا بمرسوم كذلك فإن بودلير لا يريد ان يحاكم قبل ان يكون قد قبل بذلك ، اي قبل ان يكون قد اتخذ احتياطاته للتملص

من الحكم لكن غرابة هندامه وتسريحة شعرة التي تلفت الانظار اليه هي عن طريق حركة معاكسة توكيد معتمد لوحدانيته . انه يريد ان يدهش ليخيب امل المراقب. وعدوانية هندامه هي اشبه بفعل وهذا التحدي هو اشبه بنظرة استثارة فالضاحك الذي ينظر اليه يشعر بأن هذه الغرابة المتحدية تقصده هو وتنذره واذا ما اخذه الاستنكار فهذا لأنه يكتشف في ثنايا القماش فكرة حادة تلتفت نحوه وتصيح به «كنت اعرف انك ستضحك انه يصبح وقد تملكه السخط مراقباً (بالكسر) اقل و مراقباً (بالفتح) اكثر انه يندهش على الاقل على وجه التحديد من الطريقة التي يراد له بها ان يندهش لقد سقط في فخ ان هذا الوجدان الحر غير المتوقع الذي يستطيع ان ينقب في اعمق اعماق بودلير وان يكتشف اسراره وان يكوّن عنه اكثر الافكار مكراً يجد نفسه منقاداً من يده يلهو باون ثوب بقصة بنطال واثناء ذلك يكون جسد بودلير الحقيقي عنجى عن كل خطر إن ميل مؤلفنا المفرط الى الكذب ينبع من الموقف نفسه انه يرسم ملامح بودلير غريب مثير للفضائح ينهال عليه جميع الشهود الثرثارين لواطي واش آكل اطفال وغيره وغيره لكن ما دامت الثرثرات والشائعات تمزق الشخص المخترع من بنات الخيال ، فإن الآخر يظل عنجى . اننا نجد ههنا

المظهر المزدوج للعقاب الذاتي ذلك ان بودلير دانـــدي لأنه واقـــع في اسر شعور عميق بالذنب ان بودلير ، بدفعه بقضاته الى محاكمته عـــلى اساس بينات مزورة مغشوشة يمنح نفسه الحق في احتقار حكامه وبالتالي في نقض احكامهم التي تعتقد انها مستندة الى ادق البينات. لكن اللـــوم الذي يتعرّض له لشذوذه للجرائم التي ينسبها الى نفسه هو علاوة على ذلك عقاب يمسه كلـه وإن وهمياً انه يتمتع بلاواقعية هذا العقاب بالذات ، فهي تمثل الاشباع الرمزي الخالي من الاخطـار لحبه القصاص ، وتساهم في تخفيف الشعور بأخطائه ان بودلير يتهم نفسه امام المقربين اليه بأخطاء حقيقية لأنـه يعرف انه يستطيع ان يتجنب اللوم امـــا مع الغرباء الذين يجهل ردود افعالهم فهو يتهم نفسه بأخطاء غـير واقعية ويفلت من الادانة لأنـــه يعرف انه لم يقترف الافعال التي يلام عليها ان هندامه بالنسبة الى النظر هو كأكاذيبه بالنسبة الى الاذن خطيئة مدويـــة علنية تغلفه وتحجبه وينحني في الوقت نفسه على الصورة التي رسمها في وعي الآخرين وتسحره ان هذا الداندي الداعر الشاذ، هو نفسه على كل الاحوال ان مجرد شعوره بأن الانظار تتطلع اليه يجعله متضامناً مع اكاذيبه كافة انه يرى يقرأ نفسه في عيون الآخرين ويتمتع على صعيد اللاواقـع بهذه الصورة الخيالية وبذلك يكون الدواء اسوأ من الداء:

فبودلير لخوفه من أن يُرى يفرض نفسه على الانظار .
اننا لندهش من سيماء المرأة التي تبدو عليه احياناً ونفتش فيه عن آثار لواطية لم يظهرهـا قط للعيان لكن ينبغي ان ندرك ان « الانوثة » تأتي من الوضع ، لا من الجنس. فالسمة الاساسية للمرأة — المرأة البورجوازيـة — هي ان مصيرها مرتبط ارتباطاً عميقاً بالرأي العام فهي لما كانت عاطلة عن العمل ولها من يرعاها ، فإنها تفرض نفسها عن طريق الاعجاب الذي توحي به ، وتتزين لتعجب ، ولباسها وخضابها يعريانها جزئياً ويحجبانها جزئياً ومن يعيش،من بين الرجال بطريق المغامرة في مثل هذا الوضع فإنه يأخذ على كاهله الانوثة وهذه هي حالة بودلير انه لا يكسب حياته عن طريق العمل وهـذا يعني ان المال الذي يقوم بأوده ليس هو تعويضاً عن خدمة اجتماعية جديرة بالتقدير موضوعياً بل يتعلق بالدرجـة الاولى بالاحكام التي تصدر عليه كذلك فإن الاختيار المبدئي الذي اختاره لنفسه يستلزم اهتماماً دائماً وفائقاً للعادة بالرأي العام انه يعرف انه منظور ويشعر باستمرار بالانظـار متجهة نحوه . انه يريد ان ينال الاعجاب ويثير النفور في آن واحد وابسط حركة يقوم بها انما يقوم بها من اجل الجمهور وكبرياؤه تغتم لذلك ، ومازوخيته تسر له وحين يخرج بكامل زينته يخيل الينا انه يستعد لطقس من الطقوس إن عليه ان يحمي تسريحته ، وان

يقفز من فوق برك الماء وان ينقذ حركات الحماية هذه كافة ، التي تبعث على السخرية بعض الشيء ، بأن يضفي عليها بعض الظرافة والنظرة تكون موجودة لتغلفه وبينما هو يؤدي بوقار هذه الافعال الكهنوتية الصغيرة الثقيلة العديدة يشعر بأن الغير يتغلغل فيه يمتلكه وهو لا يسعى الى حماية نفسه عن طريق هيبته وقوته ولا عن طريق الدلالات الخارجية لوظيفة اجتماعية بل عن طريق زينته وظرافة حركاته فكيف لا يكون امرأة وكاهناً في آن واحد ، امرأة كالكاهن ؟ ألم يشعر اكثر من غيره وفي داخل ذاته بهذه العلاقة بين الكهنوت والانوثة ما دام قد كتب في صواريخ حول انوثة الكنيسة كسبب لقوتها الفائقة ؟ لكن الرجل – المرأة ليس بالضرورة لواطياً انه يتمتع احياناً بسلبية الموضوع التي تتعاورها الأنظار والتي يحاول ان يعوض عنها بإنشاء حركاته وهيئته بصورة معتنى بها ولعله يحولها من حين الى آخر في احلامه الى سلبية اخرى سلبية جسده الذي تتحرقه شهوة الذكر ومن هنا بلا ريب كانت اتهاماته الدائمة الكاذبة لنفسه باللواطية لكنه اذا كان قد حلم بانه أمتلك بالقوة ، فهذا ليرضي تهتكه وتلك المازوخية التي نعرف اسبابها ان ما تنطوي عليه اسطورة الداندية ليست هي اللواطية بل حب عرض الذات

ذلك ان داندية بودلير بإكراهاتها القاسية العقيمة انما

هي اسطورة ، حلم رعاه يوماً فيوماً ودفع به الى عدد
من الافعال الرمزية لكننا نعرف انه ليس إلا حلماً
فلكي يكون الانسان دانديآً وذلك حسبا يصرح هو
نفسه فلا بد ان يكون قد نشأ في الترف وممتلكاً
لثروة لا بأس بها ويعيش حياة عاطلة عن العمل لكن
لا التربية التي تلقاها ولا عطالته المكدة عن العمل
تتجاوبان مع هذه المتطلبات يقيناً انه مخلوع طبقياً
وهو يشكو من ذلك لقد سقط في البوهيمية انه ابن
السيدة السفيرة الذي آل به المآل الى السوء لكن
هذا الانخلاع الطبقي الواقعي لا يتجاوب البتة مع القطيعة
الرمزية التي يقوم بها الداندي ان بودلير لم يأخذ مكانه
فوق البورجوازية بل تحتها انها ترعاه كما كانت
الطبقة النبيلة ترعى الكاتب في القرن الثامن عشر ان
دانديته حلم في التعويض ان كبرياءه تتألم ألماً عظيماً من
هذا الوضع المزري حتى انه ليحاول ان يعيش انخلاعه
الطبقي كما لو ان له معنى آخر معنى عدم التضامن
الارادي لكنه في اعماقه غير منخدع وحين يلاحظ
ان « غيز » مهووس اكثر مما ينبغي ليكون دانديآً فإنه
يعرف انه يستطيع ان يطبق على نفسه هذه الاعتبارات
انه شاعر واجنحته المارده التي تمنعه من السير هي
اجنحة لشاعر ، والنحس الذي يثقل عليه هو نحس الشاعر.
وما دانديته إلا تمنٍ عميق لعالم « يقع ما وراء الشعر » .

يبقى علينا ان ندرك ان غنجه الذي هو دفاع عن النفس ضد الآخرين هو في الوقت نفسه اداة علاقاته مع ذاته ان بودلير غير موجود بما فيه الكفاية في نظر نفسه، ووجهه في المرآة مألوف لديه أكثر مما ينبغي حتى يراه وتتابع افكاره يمسه عن قرب كبير يحول بينه وبين ان يحكم عليه انه صاحب نفسه لكنه لا يستطيع مع ذلك ان يمتلك ذاته انه سيبذل اذن جهده الاساسي من اجل استعادة ذاته ان صورته التي يبحث عنها في عيون الآخرين تتهرب باستمرار لكن قد يكون من الممكن ان يرى نفسه كما يراه الآخرون يكفيه ان يقيم مسافة فاصلة، مهما تكن صغيرة بين عينيه وصورته بين صحوه المتأمل ووعيه المتأمل فيه ان النرجسي الذي يريد ان ان يشتهي نفسه، يتخضّب ويتنكر ثم يقف امام المرآة بهذا الزي ويتوصل الى إيقاظ نصف شهوة تتوجه الى صورة الآخر الظاهرية الكاذبة وهكذا يتزين بودلير ليتنكر ومن ثم ليفاجىء نفسه انه يعترف في « لافانفارلو » بأنه ينظر الى نفسه في جميع المرايا وذلك لأنه يريد ان يكتشف نفسه على ما هو كائن عليه. لكن اهتمامه بهيئته سيوفق بين رغبته في ان يكتشف نفسه من الخارج وكأنه شيء وبين بغضه للمعطى ذلك ان ما يبحث عنه في المرآه انما هي ذاته كما الفها وركبها ان الكائن الذي يرى انعكاسه ليس سلبية اجنبية خالصة،

باعتبار انه قد ألبسه وخضبه بيديه انه صورة نشاطه وهكذا يحاول بودلير مرة اخرى ان يزيل التناقض بين اختياره الوجود واختياره الكينونة. إن تلك الشخصية التي نعكسها المرايا ، انما هي وجوده ، وهو في سبيله الى الكينونة ، وكينونته وهي في سبيلها الى الوجود. واثناء نظره الى نفسه في المرآة ، يمارس على عواطفه وافكاره العمل نفسه فهو يلبسها ، ويخضبها حتى تبدو له اجنبية في الوقت الذي تظل فيه عواطفه هو وافكاره هو ، وتصبح خاصة به اكثر من اي وقت مضى ما دام هو الذي صنعها انه لا يسمح لنفسه بأي تلقائية: فصحوه سرعان ما يخترقها ، ويأخذ هو بتمثيل العاطفة التي سيشعر بها وهكذا يكون متيقناً من انه سيد نفسه. فالخلق يصدر عنه ، وهو في الوقت نفسه الموضوع المخلوق وهذا ما يسميه بودلير مزاج الممثل فيه

حين كنت طفلا ، كنت اريد تارة ان اكون بابا ، بابا عسكرياً وتارة اخرى ممثلاً

« وكم من متع كنت استمدها من هذين الوهمين ».

ويعترف في « لافانفارلو »

« كان رجلاً شريف الاصل والمحتد ، وكان مجرماً بعض الشيء لتمضية الوقت — ممثلاً بطبيعته وكان يمثل لنفسه في جلسات سرية مآسي لا مثيل لها او مآسي — ملاهي بتعبير ادق. واذا ما شعر بالمرح يلامسه ويدغدغه، اسرع يتأكد من ذلك بأن يضحك بصوت عال واذا ما هملت دمعة من طرف عينه عند تذكره ذكرى من

الذكريات اسرع الى المرآة ليرى نفسه يبكي واذا ما خدشته فتاة بإبرة او موسى تحت تأثير نوبـــة من الغيرة الوحشية الخطرة ، كان صامويل يمجد نفسه بضربة سكين ، وحين كان يثقل كاهله بدين قدره عشرون الف فرنك حقير كان يهتف بفرح

ـ يا له من مصير حزين مزر هـــو مصير العبقري الواقع في أسر مليون فرنك من الديون »

التنكر هذا هو شاغل بودلير المفضل التنكر في جسده وعواطفه وحياته لقد كان يطارد مثلاً اعـــلى مستحيلاً في ان يخلق نفسه بنفسه انه لا يعمل الا لكيلا يكون مديناً لغير نفسه انه يريد ان يستعيد نفسه ان ينقحها كما تنقح اللوحة القصيدة يريد ان يكون قصيدة نفسه ، وهذه هي كوميديته إنه ما من احد عاش مثله النشاط الخلاق بكل تناقضه الذي لا حل له أفليس هدف الخالق ، بالفعل ، ان يبتدع خلقه كانبثاق كجسد لجسده أو لا يتمنى في الوقت نفسه ان ينتصب امامـــه هـــذا الجزء من ذاته انتصاب الشيء الاجنبي ؟ او لا يريد بودلير ان يكون الخالق الجذري ما دام يحاول ان يخلق وجوده بالذات ؟ لكنه يفرض بصورة مرائية حدوداً على هذا المجهود بالذات فحين كان رامبو يحاول بدوره ان يصبح مؤلف نفسه ويعرّف محاولته بعبارتـــه المشهورة « انني آخر » كان لا يتردد في اجراء تحويل جذري لفكره ، فيشرع في قلب احاسيسه كافة رأساً على عقب ،

ويحطم تلك الطبيعة المزعومــــة التي لبسها منذ ولادته البورجوازية والتي لا تعدو ان تكون عادة من العادات انه لا يمثل بل يحاول بصورة جدية ان ينتج افكــــاراً ومشاعر فائقة للعـــادة اما بودلير فيتوقف في منتصف الطريق ان الخوف يتملكه امام تلك الوحدة الشاملة التي لا تعني الحياة والابتكار فيها إلا شيئاً واحـــداً والتي ينحل فيها الصحو 'تأمل في التلقائية المتأمل فيهـــا ان رامبو لا يضيع وقته في الاشمئزاز من الطبيعة فهو يحطمها كما لو انها محصلة نقود بودلير فلا يحطم شيئاً على الاطلاق ان عمله الخلاق يقوم فقط على التفكير والتنظيم: انه يقبل بكل ما يوحي به وعيه التلقائي وكل مـا هنالك يريد ان يعاود العمل في هـــذه الاتجاهات فيشذب هذا ويطول ذاك انـــه لن يضحك ملء شدقيه اذا ما شعر بالرغبة في البكاء بل سوف يبكي بكـــاء اكثر حقيقية من البكاء الطبيعي، هذا كل شيء وستكون نتيجته التمثيلية هي القصيدة التي ستقدم له الصورة الموضوعية التي اعيد خلقها والتفكير فيهـــا لذلك الاحساس الذي شعر به نصف شعور ان بودلير خلاق للشكل المحض، اما رامبو فيخلق الشكل والمضمون

إن هذه الاحتياطات لا تكفي اذ سرعان مـــا يتملك الخوف بودلير امام استقلاله الذاتي لقد كان هـــدف الداندية والتصنع والتمثيل أن تجعله مالكاً لنفسه . وعـــلى

حين غرة يستولي عليه القلق فيتنازل ، ولا يعود يتمنى من شيء إلا ان يكون شيئاً خامد الحيـــاة تحركه نوابض خارجية واحياناً يلقي عبء تهدئة حريته وتطمينها على وراثته الفيزيولوجية

انني مريض مريض مزاجي سيء لا يحتمل بغلطة اهلي انني امزق نفسي بسببهم هذا هو مصير من يكون ابناً لأم في السابعة والعشرين ولأب في الثانيـــة والسبعين اتحاد غير متناسب موضي عقيم تصور اذن خمسة واربعون الفرق بينهما قلت لي انك تدرس الفيزيولوجيا على يد كلود برنار اسأل اذن استاذك عن رأيه في الثمرة الناجمة عن مثل هذا الزواج

اننا نلاحـــظ ههنا ولا شك ذلك المزج بين الهوس والاحتياطات ان استقالته واستسلامه الشامـــل لجسده ووراثته بحاجة الى تصديق قاضٍ ، ولذلك يتوجه الى كلود برنار لكن كي يكون الحكم اشد سحقاً فإنه يزيد في عمر والده عشر سنوات وبـــذلك يستطيع ان يفلت من اللعنة الفيزيولوجية حين سيحلو له ذلك ان حـــكم الخبير سيكون رهيبـــاً وسيولد في نفسه الخوف الذي يتمنى ان يشعر به لكن هذا الخوف لن يكون واقعيـاً تماماً لأن محاكمته تمت على اساس بينات اختلقها بنفسه اننا نجد ههنا من جديد الآلية التي وصفناها آنفـــاً : ان بودلير يحتفظ دوماً لنفسه بمخرج

وقد يلجأ في احيان اخرى الى الشيطان كتب الى فلوبير عام ١٨٦٠

« كنت دوماً واقعاً في أسر استحالة تمنعني من فهم بعض اعمال او افكـار الانسان المفاجئة بدون فرضية تدخل قوة خبيثة خارجية عنه »

وكتب في « قصائد نثرية صغيرة »

« لقد وقعت اكثر مـن مرة ضحية تلك الازمات وتلك الانطلاقات التي تسمح لنا بالاعتقاد بأن ثمة أبالسة خبيثة تنساب فينا وتجعلنا ننفذ رغماً عنا رغباتهـا اللامعقولة وإن روح التضليل ... تساهم كبير المساهمة... في تكوين ذلك المزاج الهستيري في رأي الاطبـاء والشيطاني في نظر الذين يفكرون بصورة افضل قليلاً من الاطباء ، ذلك المزاج الذي يدفع بنا بلا مقاومة نحو مجموعة من الاعمال الخطرة او غير اللائقة »

وهكذا يصبح التضليل والفعل المجاني وهما طقسان اساسيان من طقوس الداندية نتيجـة تحريض خبيث وخارجي ولا يعود بودلير إلا دمية تحرك بالخيوط وهذا ما يوفر له الراحة ـ الراحة الكبرى التي تتمتع بها الحجارة والكائنات الخامدة الحياة وليس من المهم في الحقيقة ان ينسب هذه الافعال الى الشيطان او الى الهستيريا. انما المهم ألا يكون علتها ، بل ضحيتها ولنلاحظ ،

١ ـ « الزجاج الرديء » ـ ص ٢٣

بعد ذلك انه يترك كما هي عادته ، احد الابواب مفتوحة انه لا يؤمن بالشيطان

وخلاصة القول انه لا يهمل شيئاً ليحول حياته الى قدر في نظر نفسه وهذا شيء لا يحدث كما يلاحظ مالرو، الا ساعة الموت ولقد كانت الحكمة اليونانية تتساءل من يستطيع ان يقول انه سعيد او تعيس قبل أن يموت؟ ان حركة ما نفحة ما فكرة ما تستطيع ان تغير على حين غرة معنى الماضي كله هذا هو الشرط الزمني للانسان وبودلير يمقت هذه المسؤولية التي تلقي على كاهله على حين فجأة بكل عبء ماضيه لا يريد ان يخضع لهذا القانون الصارم الذي يجعل سلوكنا الراهن يعدّل في كل لحظة افعالنا الماضية وكيما يكون الماضي بصورة نهائية ما هو كائن عليه ، اي كيما يظلّ غير قابل للتشويه او للتحسين ، وكيما يستبدل الحاضر بالذات خضرته وشغوره المقلق بسكون السنوات المنصرمة، فإنه سيختاران ينظر الى حياته من وجهة نظر الموت وكأن نهاية سابقة لأوانها قد جمدته انه يتظاهر بانه انتحر واذا كان غالباً ما يداعب فكرة الانتحار ، فهذا لأنها تسمح له في كل لحظة بأن يفكر بأنه قد اوقف حياته انه في كل لحظة في الجانب الآخر من القبر بالرغم من انه ما يزال حياً لقد قام بالعملية التي تحدث عنها مالرو إن وجوده العضال جاثم ههنا تحت انظاره كقدر انه يستطيع ان يرسم خطاً ويجمعه وفي كل لحظة يأخذ استعداده لكتابة « مذكرات حياتي الميتة » .

وهكذا فإن المذنب الحر الفخور دون جوان الجحيم ، المتمرد هو في الوقت نفسه الشاعر الملعون دوماً دمية الشيطان الطفل الفاسد المدان لزوجين غير متناسبين وبخاصة الضحية المصلوبة لقدر على الطريقة القديمة لم يعد هناك من ينظر اليه هذه المرة وهو يريد ان يتجاهل ان نظرته الخاصة هي التي تحجره لكنه يميز دوماً في جدة وجوده المتجددة ابداً وجهاً ثابتاً عضالاً يسميه كينونته

سفينة وقعت في القطب
فكأنها وقعت في فخ من البلور
تفتش عن المضيق المشؤوم
الذي اوقعها في هذا السجن

وهكذا يستطيع مرة اخرى ايضاً ان يلعب على مستويين ان شعوره بالحرية يجعله في كل لحظة اكثر قدرة على تحمل عدم قابلية قدره للتغيير لكن يقينه بأن له قدراً هو الذريعة الدائمة التي يبرر بها اخطاءه والحيلة التي اختارها ليخفف من عبء استقلاله الذاتي واذا كان هذا الموت ماثلاً في كل اثر من آثاره واذا كان هذا الموت « يشده اليه بخيوط خفية اكثر مما تشده الحياة » ، فهذا لأنه يناديه من خلال معنى الوحدانية الحاد فيه فلا شيء في العالم وحيد غير ما يمر غير « ما لا يمكن ان

يرى مرتين » لكن لمجرد ان هذا الوجود سينتهي ذات يوم فإنه يبدو له منتهياً سلفاً واذا كان لا بد ان ينتهي ، فلا اهمية لأن يكون ذلك في الغد بدلاً من اليوم ان النهاية كامنة في اللحظة الراهنة ومن هنا فإن كل شيء يبدو ماضياً حتى اللحظة التي يعيشها بيد انه اذا كانت حياة الحاضر هي حياة التلقائية وغير المتوقع وغير القابل للتفسير فإن حياة الماضي هي حياة التفسيرات وتسلسل العلل والاسباب وبودلير الذي يتأرجح بين الشعور بأن كل شيء قد ضاع والشعور بأن كل شيء يمكن يبدأ من جديد ، يتدبر امره في كل لحظة ليقفز من احدهما الى الآخر حسب مصلحته

وذلك نه لا يكفي ان نقول لجأ الى الشعوذات الفكرية ليعطي حياته لوناً ذابلاً فقد قام عن قصد باستقلاب جذري واختار ان تقدم ووجهه مستدير الى الخلف نحو الماضي قابعاً قاع العربة التي تحمله وشاخصاً بنظره الى الطريق الذي يهرب اننا نادراً ما نستطيع ان نجد وجوداً آسناً كوجوده فاللعبة قد تمت في نظره منذ ان كان في الخامسة والعشرين لقد توقف كل شيء بعد ان غامر بحظه وخسر الى الابد ومنذ عام ١٨٤٦ انفق نصف ثروته ، وكتب معظم قصائده ، واعطى علاقاته مع اهله شكلها النهائي وأصيب بمرض الزهري الذي سيقضي عليه رويداً رويداً ، والتقى بالمرأة

التي ستثقل كالرصاص على ساعات حياته كافة ، وقام بالرحلة التي ستغذي كل آثاره بالصور الغريبة لقد عاش تلك النفحة القصيرة الامد واحدة من تلك « الهزات » التي كثيراً ما تكلم عنها ثم انطفأت الشعلة ولم يعد امامه إلا ان يعيش عيشة الكفاف الشبيهة بالموت وقبل ان يبلغ الثلاثين بمدة طويلة كانت آراؤه قد تكونت ولن يفعل شيئاً في المستقبل سوى ان يجترهـــا واننا لنشعر بانقباض في القلب حين نقرأ « صواريخ » او قلبي العاري » فلا جديد في هذه الملاحظات التي كتبها في نهاية حياته لا شيء جديداً غير ما قاله مئة مرة وبصورة افضل وعلى العكس من ذلك ، نجد ان « لافانفارلو » ، التي كتبها في شبابه تثير ذهولنا فكل شيء متوفر فيها الافكار والشكل وغالباً لاحظ النقاد سيطرة هذا الكاتب على قلمه وهو ما يزال في الثالثة والعشرين وبدءاً من هـــذه السن يفعل شيئاً سوى ان يكرر نفســه انها دوماً نفس المنازعات نفس الشكاوى ونفس الأيمان مع امه ونفس المشاجرات مع دائنيه ونفس المناقشات المالية مع آنسيل وهو يعاود السقوط دوماً في نفس الأخطاء ويصدر عليها نفس الادانات وتضيئه في خضم اليأس نفس الآمال انه يكتب عن آثار الآخرين ويعود الى قصائده القديمة ويعمل فيها ، ويشغل نفسه بألف مشروع ادبي يعود أقدمها الى

عهد شبابه ، ويترجم اقاصيص ادغار بو   لكن هـــذا الخالق كف عن الخلق ، انه يكرر نفسه   لقد غيّر مكان اقامته مئة مرة   لكنه لم يقم برحلة واحدة   بل لم يجد القوة ليقيم في هونفلور   ان الاحداث الاجتماعية تنساب فوقه دون ان تمسه   لقد اضطرب قليلاً عام ١٨٤٨ لكنه لم يبد اي اهتمام صادق بالثورة   كان كل ما يريده هو ان توضع النار في منزل الجنرال اوبيك   وسرعان ما غرق من جديد في احـــلامه الكئيبة عن الاستقرار الاجتماعي   انه يتفسخ اكثر مما يتطور   وعاماً بعد عام يزداد سناً وكآبة   وتتضاءل سعة افقه وحيوية فكره ويتخاذل جسده   والجنون النهائي   الـــذي تبعه خطوة خطوة   لا يبدو حادثاً طارئاً بقدر ما يبدو نتيجة حتمية لانحطاطه

انه هو الذي اختار هذا الانحلال الطويل المؤلم   لقد اختار بودلير ان يعيش بعكس اتجاه الزمن   لقد عاش في عصر اكتشف المستقبل   ولقد بيّن جان كاسو [1] تيار الافكار والآمال الواسع الذي كان يحمل الفرنسيين نحو المستقبل فبعد القرن السابع عشر ، القرن الذي اعاد اكتشاف الماضي ، والقرن الثامن عشر الذي قام بجرد الحاضر   كان القرن التاسع عشر يعتقد بأنه اكتشف بعداً جديداً للزمن والعالم المستقبل   المستقبل الذي آمن بوجوده علماء الاجتماع

---

١ — جان كاسو : « ١٨٤٨ » في « تشريح الثورات » .

والانسانيون والصناعيون الذين اكتشفوا قوة الرأسمال ، والبروليتاريا التي بدأت تعي نفسها وماركس وفلورا تريستان وبرودون وجورج صاند المستقبل الذي يعطي الحاضر معناه فما دام العصر الراهن انتقالياً فإنه لا يُفهم حقاً إلا بالنسبة الى عهد العدالة الاجتماعية الذي يحضر له ونحن اليوم نسيء تقدير قوة ذلك التيار الثوري والاصلاحي الكبير ، ولهذا فإننا نسيء تقدير القوة التي اضطر بودلير الى بذلها ليسبح بعكس التيار ولو انه استسلم له ، لكان حمله ولكان ارغمه على ان يؤكد صيرورة الانسانية وعلى ان يتغنى بالتقدم لكنه لم يشأ ذلك انه يكره التقدم لأن التقدم يجعل من الحالة المستقبلة لنظام من الانظمة الشرط العميق لحالته الحاضرة وتفسيرها ان التقدم إنما هو اولوية المستقبل والمستقبل يبرر المشاريع الطويلة الأمد وبودلير الذي لا يريد ان يشرع بشيء يدير ظهره للمستقبل وحين يتخيل مستقبل الانسانية فهذا ليعطيها شكل انحلال محتم إن العالم سينتهي والسبب الوحيد لقدرته على الاستمرار هو وجوده فما اوهى هذا السبب اذا ما قورن بجميع الاسباب الاخرى التي تعلن العكس ، وخاصة السبب التالي ما الذي سيفعله العالم من الآن فصاعداً تحت السماء[1] ؟» كما انه يحلم في مقال آخر بتدمير «اعراقنا الغربية» أمـــا عن مستقب

---

١ ـ «صواريخ» .

الشخصي   فهو إذا كان يفكر فيه   فإنما يفكر بمظهره المأساوي   فقد كتب في كانون الاول ١٨٥٥

« انني لست هرماً موضوعياً ، لكنني قد اصبح كذلك قريباً

وفي عام ١٨٥٩ عاد الى نفس المشكلة

« إذا اصبحت عاجزاً او شعرت بعقلي يخور قبل ان اكون قد فعلت كل ما تخيل إلى انني استطيع ويتوجب علي ان افعله

او ايضاً

« هناك ما هو اخطر   من الاوجاع الجسدية ، ألا وهو ان ارى موهبتي الشعرية المعجبة ووضوح افكاري وقوة رجائي التي تشكل في الواقع رأسمالي   تهترىء   تأفل تتلاشى في هذا الوجود الرهيب المليء بالهزات »

إن البعد الرئيسي للزمنية هو بالنسبة اليه الماضي   انه هو الذي يعطي الحاضر معناه   لكن هــذا الماضي ليس صورة مسبقة ناقصة ولا وجوداً سابقاً لأشياء متساوية في القيمة والقوة مع اشياء نعرفها   ان علاقة الحاضر بالماضي هي التقدم المعكوس   اي ان القديم يحدد الجديد ويفسره بدقة كما ان الاعلى يفسر ويحدد الادنى في نظر كونت ان المذهب الغائي الذي يشتمل عليه مفهوم التقدم لم يختف عند بودلير   بل على العكس   لكنه قلب . ففي علاقة

الغائية التقدمية يفسر ويحدد التمثالُ الذي سيكتمل في المستقبل الملامح الاولية التي ينحتها الفنان في الوقت الحاضر اما لدى بودلير فإن التمثال يقطن في الماضي ، وانما من الماضي يفسر هذا التمثال لأنقاضه الراهنة التقليدات الغليظة التي تهدف الى اعادة تكوينه والنظام الاجتماعي الذي ينال استحسانه هو النظام الذي لا يسمح من خلال تسلسله الكامل الصارم بأي تحسين له وإذا ما تغير فسد وتشوه كذلك فإن الديمومة ، لدى الفرد لا يمكن ان تولد غير الهرم والتفسخ واعتقد انه جاهارت الذي وصف روماني القرن الخامس بأنهم اشبه بقوم متسكعين في مدينة كبيرة عليهم ومليئة بآثار عظيمة دارسة وبأنصاب غامضة جليلة لا يستطيعون لا ان يفهموها ولا ان يعيدوا صنعها ، وتشهد امامهم على وجود اسلاف لهم اكثر علماً واعظم مهارة هذا هو تقريباً العالم الذي اختار بودلير ان يعيش

لقد تدبر امره حتى يكون حاضره مسكوناً بماضٍ يسحقه وليست المسألة وهذا هو الفرق الاساسي بين هـــذا الاحساس وبين الاحساس بالتقدم ـــ مسألة سقوط متواصل يزداد انحطاطاً لحظة بعد لحظة بل المسألة بالاحرى هي مسألة شكل ممتع لا عديل لـــه ظهر ذات مرة في الضبابية الاولى للحياة او التاريخ، وجميع المشاريع الفردية وجميع مؤسسات المجتمع ليست الا صوراً آثمة عنه غير جديرة بـــه . لقد تألم بودلير عميق الألم من نجاح فكرة

التقدم لأن العصر كان ينتزعه من تأمل الماضي ويدير له رأسه بالقوة نحو المستقبل وهكذا كان يرى انه مغضب على ان يعيش الزمن بالعكس ، وكان يشعر بالخرق والحرج في هـــذا الوضع كرجل يراد منه ان يسير ووجهه الى الخلف ولم يجد من راحة إلا بدءاً من عام ١٨٥٢ عندما اصبح التقدم بدوره حلماً ميتاً بالماضي لقد استطاع ان يعيش حياة آسنة هـــادئة في مجتمع الامبراطورية المتمثر المتحشرج المهمّ قبل كل شيء بالحفاظ عـــلى الوضع الراهن او بإعـــادة توطيده المسكون بذكريات ماجدة وبآمال عظيمة لاغية ، واستطاع ان يتابع بكل يسر سيره البطيء المترنح الى الوراء ومن المناسب ان ندرس عن قرب اقرب هذا التعلق الجذري بالماضي لقد رأينا انه يمثل من الاصل محاولة معينة للهرب من الحرية ان الطباع والقدو ليست إلا مظاهر قائمـــة كبرى لا تتجلى إلا في الماضي والانسان الذي يحسب نفسه « غضوباً » ، يقتصر في الواقع على ان يلاحظ انه كثيراً ما غضب لقد التفت بودلير نحو الماضي ليحد الحرية بالطباع لكن لهذا الاختيار دلالات اخرى ان بودلير يشمئز من رؤية الزمن يمر ويخيل اليه انه دمه الذي يسيل فذلك الزمن الذي يمر هو الزمن الضائع ، زمن الكسل والخمول ، زمن

---

١ – يقصد امبراطورية نابليون الثالث (١٨٥٢) الرجعية التي جاءت في اعقاب ثورة ١٨٤٨ الفاشلة (هـ م) .

آلاف الأيمان التي يقسم عليها المرء ولا يفي بها زمن تبديل مكان الاقامة والتسوق ، وذلك البحث الدائم عن المال. لكنه ايضاً زمن[1] السأم ، الانبثاق المتجدد ابداً للحاضر. والحاضر يشكل شيئاً واحداً والطعم التفه اللزج الذي توحي به الى بودلير ذاته شيئاً واحداً وطوايا حياته الداخلية الشافة

اؤكد لكم ان الثواني قد زادت حدتها الآن بقوة وأبهة وان كلاً منها عندما تنبثق عن ساعـــة الحائط تقول انا الحياة أنا الحياة التي لا تحتمل الحياة التي لا يروى لها ظمأ

ان ما يهرب منه بودلير الى الماضي هو تمعي ما ، المشروع اللاشبع الدائم وهو يبرر شأنه شأن المصابين بالشيزوفرينيا والسوداوية يبرر عجزه عن العمل بالانتفات نحو سبق ان عاشه نحو ما سبق ان فعله نحو مـا لا علاج له لكنه يبحث ايضاً تمعي آخر عن تحرر من ذاته ان صحوه تأمل يكشف له عن انه يحيا يوماً فيوماً كتتابع من الرغبات الشاحبة ومن نفعالات التي يبردها العدم وعن انه يعرف نفسه عن ظهر قلب وان عليه مع ذلك ان يعيش نقطة نقطـــة ولكي يرى نفسه لا كما يصنعها بل كما يراه الآخرون كما يراه الله كما هو كائن فإن عليه في النهايـــة ان يلتقط

---

١ – قصائد نثرية صغيرة الغرفة المزدوجة

طبيعته وهذه الطبيعة كائنة في الماضي ان ما انا كائن
عليه هو ما كنته ، باعتبار ان حريتي الحاضرة تطرح دوماً
على بساط البحث من جديد الطبيعة التي اكتسبتها وفي
الوقت نفسه لم يختر بودلير قط التخلي عن ذلك الوعي
الصاحي الذي يمنحه كرامته ووحدانيته إن اعز امنية
عنده هي ان يكون كالحجارة كالتمثال كينونة
السكون الهادئة المطمئنة ، لكن بشرط ان تكون عدم قابلية
النفاذ الهادئة هذه هذه المثابرة هذا الانتماء الكامل
للذات الى الذات من صنع وعيه الحر من حيث انه
حر ومن حيث انه وعي والحال ان الماضي يقدم له
صورة ذلك التركيب المستحيل بين الكينونة والوجود ان
ماضي انما هو انا لكن هذه الأنا نهائية إن ما فعلته
قبل ستة اعوام قبل عشرة اعوام يظل مفعولاً الى
الأبد انه ما من شيء يمنع وعيي لأخطائي لفضائلي،
لعواطفي من ان يكون بكل كثافته ونهائيته واقفاً
عند افقي كذلك الحجر الكيلومتري الذي تجاوزته العربة
التي تقلني والذي يتناءى ويتضاءل الى لا نهاية تحت
نظري وبالفعل إن ما هو كائن هو هذا الوعي
الذي وعيته لقد جعت غضبت تألمت فرحت
وفي كل حالة من هذه الحالات كان ما يشكل نواة
شعوري هو وعيي له وهذا الوعي المتردد القليل الثقة
بنفسه ، مسؤول مسؤولية لا متناهية عن نفسه . لقد وجد

الجوع واللذة لأنني وعيتها وانا الآن لم اعد مسؤولاً عن هذا الوعي او لم اعد مسؤولاً على الاقل بالصورة نفسها انه يقف ههنا كحجر في طريقي لكنه يظل مع ذلك وعياً ولا ريب في ان هذا الوعي المتحجر لا يخصني فعلاً ، وهو لا يلازمني كما يلازمني وعيي الحاضر. لكن بودلير اختار ان يكون هذا الماضي الواعي إن ما يهمله إن ما يعتبره ناقص الكينونة انما هو شعوره الراهن انه يقلل من قيمته بهدف جعله اقل إلحاحاً واقل حضوراً انه يجعل من الحاضر ماضياً ناقصاً حتّى يستطيع ان ينفي واقعيته وهو في ذلك يقترب بعض الشيء من كاتب كفوكنر الذي اشاح هو الآخر عن المستقبل وجعل من نفسه الناقد المحتقر للحاضر لحساب الماضي لكن الماضي يكشف عن نفسه بالنسبة الى فوكنر من خلال الحاضر كما تتجلى كتلة من الماس من خلال فوضى شفافة انه يشن هجومه على واقعية الحاضر مباشرة اما بودلير الاكثر مهارة والاكثر رياء فإنه لا يفكر بأن ينفي بصراحة هذه الواقعية بل يرفض فقط ان يعلق عليها اي قيمة. ان القيمة تخص الماضي وحده لأن الماضي كائن واذا كان الحاضر يقدم ظاهراً من .بال او طيبة فهذا لأنه يستعيره من الماضي كما يستعير القمر نوره من الشمس. ان تبعية الحاضر المعنوية هذه ترمز الى في الكينونة ، لأن الشكل المكتمل يجب ان يسبق انحطاطه اللاحق ، بموجب

المنطق السليم وبكلمة واحدة انه يطلب من الماضي ان يكون الابديـــة التي تغيره داخلياً انه يخلط بصورة جذرية بين الماضي والابدية أفليس الماضي نهائياً ساكناً خارجاً عن كل متناول ؟ وهكذا سيعرف بودلير لذة الاخطاط المريرة التي ينقل طعمها وكأنها جرثومة معدية الى تلامذته الرمزيي النزعة الحياة سقوط والحاضر تدهور ولقـــد اختار بودلير ان يعزز صلاته بالماضي سعياً وراء الندم وتأنيب الضمير تأنيب ضمير مبهم غير محتمل احياناً لا يعدو ان يكون في الواقع غير نمط التصور العيبي للذكرى انه يؤكد عن طريقة تضامنه العميق مع الرجل الذي كانه ويحافظ في الوقت نفسه على حريته انـــه حر لأنه مذنب ولأن الخطيئة بالنسبة اليه هي اكثر تظاهرات الحرية شيوعاً انه يلتفت نحو ذلك الماضي الذي هو كينونته والذي يعتقد انه دنسه. وبذلك يعقل ماهيته عن بعد ويستعيد في الوقت نفسه فرح الخطيئة الداعر لكنه لا يعظ هذه المرة ضد الفضيلة المتعلمة بل ضد نفسه وكلما غاص في الشر اتاح لنفسه مزيداً من الفرص للتوبة ، واصبحت ذكرى ما كانه اكثر إلحاحاً وحياة واصبحت الصلة التي تربطه بماهيته امتن واكثر جلاء

لكن يجب ان نوغل في تحليل اكثر من ذلك وان نكتشف في هذه الصلة بالماضي جوهر ما سنسميه بالواقعة

الشعرية البودليرية ان كل شاعر ينشد على طريقته ذلك التركيب بين الوجود والكينونة الذي اعترفنا باستحالته ويقودهم سعيهم الى انتخاب بعض من اشياء هـذا العالم التي تبدو لهم رموزاً ناطقة عن ذلك الواقع الذي يمكن فيه للموجود والكينونة ان يتحدا والى محاولة امتلاك هـذه الاشياء عن طريق التأمل والامتلاك كما بينّا محاولة لتثبيت الهوية ومن هنا فإنهم ينقادون الى ان يخلقوا ، عن طريق رموز بعض الطبيعات الملتبسة سطوعاً للوجود والكينونة يرضيهم من وجهين لأنـه ماهية موضوعية ويستطيعون ان يتأملوه ولأنه ينبثق عنهم ويستطيعون ان يجدوا انفسهم فيه والموضوع الذي خلقه بودلير عـن طريق انبثاق دائم في قصائده وعن طريق افعال حياته ايضاً هو سماه وما سنسميه من بعده بالروحي ان الروحي هو الواقعه الشعريه البودليرية ان الروحي هو كائن ويتجلى للعيان ككائن إن له من الكينونة الموضوعية والانسجام والدوام والهوية لكن هذا الكائن ينطوي على نوع من التحفظ انه غير كائن مئة بالمئة ان ثمـة تحفظاً عميقاً يمنعه لا من التجلي بل من ان يؤكد نفسه على طريقة الطاولة او الحصاة انه يتميز بنوع من الغياب ، انه غير كائن ههنا تماماً غير منظور تماماً انه يظل لشدة تحفظه معلقاً بين العدم والكينونة وقد يستطيع المرء ان يتمتع به ، فهو لا يتهرب لكن هذه المتعة التأملية

فيها شيء من الخفة السرية انها تتمتع من كونها لا تتمتع بما فيه الكفاية وبديهي ان هذه الخفة الميتافيز بقية للعالم البودليري تمثل الوجود بالذات ومن قرأ ابيات « النحس الظريفة

كثير من الزهور تسفح آسفة
عطرها الناعم كسر
في الوحدات العميقة

يحس بحب بودلير لتلك الاشياء الغريبة التي هي اشبه بمس خفيف للكينونة والتي تتألف روحانيتها من الغياب ان العطر موجود « في حالة أسف » وهذا الاسف نتنشقه مع العطر نفسه وهو يهرب في الوقت نفسه الذي يهب ذاته فيه ويتسرب الى الخياشيم ويتبخر وسرعان ما يتلاشى لكنه لا يتلاشى تماماً انه كامن ههنا ، بعناد ، يمسنا مساً خفيفاً وانما لهذا السبب احب بودلير الروائح حباً جماً — لا لأن حاسة الشم عنده كانت قوية كما يزعم بعض الذين يحبون الدعاية ان رائحة جسد من الاجساد ، هي ذلك الجسد نفسه الذي نتنشقه من الفم والانف والذي نمتلكه دفعة واحدة فكأنها اعمق جوهر فيه وكأنها بكلمة واحدة طبيعته ان الرائحة التي في ، هي ذوبان جسد الآخر في جسدي . لكن هـذا الجسد

المتبخر المتجرد يظل هو هو وإن تحول الى روح اثيرية وبودلير يتعشق عشقاً جماً هذا الامتلاك الروحاني، وغالباً نشعر انه يتنشق النساء اكثر مما يفعل الحب معهن لكن للروائح بالنسبة اليه علاوة على ذلك تلك القدرة الخاصة التي تجعلها تحيي في النفس وهي تمنح ذاتها صورة لعالم آخر عصي المنال في آن واحد الجسد ونفي الجسد وإن لنيها شيئاً غير راضٍ وغير مرتوٍ يتحد برغبة بودلير في يكون دوماً في مكان آخر

كما ان النفوس الأخرى تسبح مع الموسيقى
فإن نفسي يا حبي، تسبح مع عطرك

ولهذه الاسباب نفسها، سيفضل ساعة الشفق سماوات هولندا الضبابية النهارات البيضاء الدافئة المحجبة، الاجسام الشابة المريضة وكل الكائنات والاشياء والمخلوقات التي تبدو متألمة محطمة او تنساب نحو نهايتهـــا العجائز الصغيرات وكذلك نور القنديل الذي يشحب مع طلوع النهار والذي يبدو وكأن كينونته تخبو والنساء الجميلات اللاتي يلحن في قصائده يذكرن هن ايضاً بارتخائهن وصمتهن عما لست ادري من تحفظ. انهن راهقات بالاصل لم يبلغن كامـــل

تفتحهن والابيات التي تصفهن تعرف كيف توحي الينا بأنهن حيوانات شابة متناومة تنساب على سطح الارض دون ان تترك اثراً تنساب على سطح الحياة ، غائبة ، ملولة ، باردة مبتسمة غارقة في طقوس تافهة وسنسمي معه بالروحي الكائن الذي يمكننا التقاطه بالحواس والذي يشبه، اكثر ما يشبه الوعي لقد صب بودلير كل جهده على استعادة وعيه ، على امتلاكه كما لو شيء في راحة يديه ولهذا فإنه يندفع طائراً وراء كل ما يقدم ظاهر وعي متحول الى موضوع العطور الانوار الخافتة الموسيقى البعيدة وغيرها من الصور التي سرعـان ما يتشربها ويستهلكها وجوده الشفاف وكأنها ذبيحة إلهية لقد سيطرت عليه الرغبة في ان يجس افكاراً تحولت الى اشياء — افكاره الخاصة المتجسدة

كثيراً ما فكرت بأن الحيوانات المسيئة المنفرة قـد لا تكون غير افكار الانسان الرديئة وقد تفتحت وتجسدت في الحياة المادية »

ان قصائده نفسها هي افكار متجسدة لا لأنها تجسدت في الرموز فحسب بل ايضاً وبوجه خاص لأن كل قصيدة منها ، بإيقاعها المتفنن والمعنى المتردد عن عمد وشبه الممحو الذي تعطيه للكلمات وبطلاوتهـا الخفية هي وجود متحفظ شرود شبيه كل الشبه بالرائحة .

لكن اقرب الاشياء الى عطر المرأة هو دلالة شيء ما.

ان الموضوع الذي له معنى يدل ، علاوة على معناه على موضوع آخر ، على موقف عام ، على الجحيم أو السماء ان الدلالة التي هي صورة الصبوة الانسانية ، لأشبه بتجاوز متحجر للموضوع من قبل نفسه انها موجودة تحت انظارنا لكنها ليست منظورة حقاً انها أخدود في الهواء ، اتجاه ساكن عديم الحراك . انها تحافظ ، وهي الوسيط بين الشيء الحاضر الذي يحملها وبين الموضوع الغائب الذي تدل عليه ، اقول انها تحافظ في نفسها على شيء من ذاك وتعلن عن هذا انها ليست نقية تماماً قط ، وإن لفيها ما يشبه ذكرى الاشكال والالوان التي تنبثق عنها ، وهي مع ذلك تهب ذاتها ككينونة متجاوزة للكينونة ، فلا تتسبط ولا تتمدد بكاملها بل تتحفظ وتترنح قليلاً ولا تسلم نفسها إلا للانظار الحادة الثاقبة . انها بالنسبة الى بودلير الذي يتطلب سأمه دوماً « مكاناً آخر ، رمز عدم الرضى بالذات فالشيء الذي يدل ويرمز ، هو شيء غير راضٍ إن معناه هو صورة الفكر ويهب ذاته كوجود غائص في الكينونة واننا لنلاحظ ان كلمات العطر والفكر والسر مترادفة تقريباً لدى بودلير

نلقى احياناً زجاجة عطر قديمة تتذكر
انبثقت منها روح كلها حياة

الف فكرة نائمة ، خادرات مأتمية ،
ترتجف بهدوء في الظلمات الثقيلة ،
تبرز اجنحتها وتندفع في طيرانها [1]

خزانـــة مليئة بالاسرار الناعمـــة ،
مليئة بالاشياء الطيبة ،
بالخمور والعطور [2]

كثير من الزهور تسفح آسفة
عطرها الناعم كسر [3]

واذا كان بودلير يحب الاسرار حباً جماً ، فهذا لأنها تكشف عن « عالم آخر » دائم ان الانسان الذي يملك سراً لا يكون حبيساً بكامله في جسمه ، ولا في الدقيقـة الحاضرة انه في مكان آخر وانا لنشعر انـــه واعٍ لعدم رضاه ولسحنته الغائبة ان ثقله على الحاضر يتضاءل، بعد ان خفف سره من وزنه ، وكينونته اقـل ضغطاً ، او على حد تعبير هيدجر انه « لا يقتصر على ما هـــو كائن عليه » في نظر اصدقائه واقربائـــه بيد ان السر كائن موضوعي يمكن الكشف عنه بالرمـــوز ، او يمكن

١ – ازهار الشر زجاجة العطر
٢ – ازهار الشر السفينة الجميلة
٣ – ازهار الشر : النحس

لفصل صامت ان يجعلنا نفاجئه وبمعى ما انه خارج عنا ، امامنا نحن شهوده لكنه لا يكاد يسمح لأحد بأن يدركه بل يقترح نفسه ، يوحي بذاته بواسطة ملامح وجه ، او موقف ، او عبارات ملتبسة وهكذا فإن هذه الكينونة التي هي طبيعة الشيء العميقة ، هي في الوقت نفسه ماهيته الدقيقة انه كائن بالكاد وكل دلالة يتحمس الانسان للكشف عنها يمكن ان تعتبر سراً ولهذا سيبحث بودلير بهوس عن العطور ، عن اسرار كل شيء ولهذا سيحاول ان ينتزع من الالوان بالذات معانيها ، ولهذا سيكتب عن اللون البنفسجي انه يعني

حباً مكتوماً غامضاً ، مقنعاً ، لون الكاهنة [1]

واذا كان يأخذ عن سويدنبرغ فكرة الاتصالات البالغة الإبهام ، فليس ذلك لأنه يؤمن بالميتافيزيقا التي تنطوي عليها ، بل لأنه يتمنى ان في كل واقع عدم رضى متحجراً نداء الى شيء آخر ، صبوة متحولة الى موضوع ، ولأنه يتمنى ان يمر

عبر غابات من رموز
تراقبه بأعين أليفة

واخيراً فإن هذه التجاوزات ستمته الى العالم قاطبة

١ - صواريخ .

ان كلية العالم ستكون دالة وسيجد بودلير صورته في هذا النظام المتسلسل للاشياء التي تقبل بأن تضيع لتدل على اشياء غيرها ان العالم المادي الخالص هو ابعد ما يكون عنه لكن بودلير يسترد نفسه في العالم الدال أفلم يكتب في « دعوة الى السفر في « قصائد منثورة »

« في ذلك البلد الجميل الرائع الهدوء ألن تكوني محاطـــة بأشباهك أولن تستطيعي ان تنظري الى نفسك في قرينتك كما يتكلم الصوفيون ؟ »

هذه هي غاية جهود بودلير ان يسطر على نفسه من خلال « تمايزه » الخالد ، وان يحقق غيريته باتحاده بالعالم اجمع ان هذا العالم ، المخفف ، المفرغ ، المليء بالرموز والدلالات الذي يغلفه في كليته اللامحدودة ، ليس شيئاً آخر غير ذاته ونرجس هذا لا يريـــد في الاصل ان يعانق ويتأمل شيئاً آخر غير ذاته والجمال نفسه ليس كمالاً حسياً محصوراً في الحدود الضيقة لإطـــار لنوع شعري للحن موسيقي انه قبل كل شيء ايحاء ، اي ذلك النمط الغريب المصطنع من الواقع الذي يمتزج فيـــه الوجود والكينونة ، والذي يتحول فيه الوجود الى موضوع صلب متين على يد الكينونة ، الذي يخفف فيه الوجـــود من ثقل الكينونة واذا كان يعجب بكونستانتان غيز ، فهذا لأنه يرى فيه

« رسام الظروف وكل ما توحي به من خلود » .

ويكتب في مكان آخر

إن غريزة الجمال الرائعة الساكنة هي التي تجعلنا ننظر الى الارض ومظاهرها وكأنها صورة قرينة للسماء ان الظمأ الذي لا يروى له غليل الى كل ما هو في الماوراء، والذي تكشف عنه الحياة هو الدليل الحي على خلودنا ان الروح تلمح العظمة الكامنة وراء القبر عن طريق الشعر ومن خلاله في آن واحد عن طريق الموسيقى ومن خلالها وحين تدفع قصيدة جيدة بالدموع الى حافة العين، فإن هذه الدموع ليست دليلاً على فرط المتعة بل انها شهادة على كآبة مستثارة على عصبي على طبيعة منة في اللاكمال ان تستولي فوراً فوق هذه الارض بالذات على فردوس موحى به وعلى هذا فان مبدأ الشعر هو بكل بساطة الطموح الانساني الى جمال سامٍ وتجلي هذا المبدأ يكمن في الحماسة في انخطاف الروح حماسة مستقلة كل الاستقلال عن الهوى، حماسة هي نشوة القلب والحقيقة التي هي كلأ العقل ذلك ان الهوى شيء طبيعي، طبيعي اكثر مما ينبغي الى حد لا يستطيع معه إلا ان يدخل لحناً جارحاً شاذاً على مجـال الجمال الخالص، ومألوف وعنيف اكثر مما ينبغي الى حد لا يستطيع معـه إلا ان

استنكار الرغبات الخالصة والكآبة الطلية واليأس النبيل، التي تسكن المناطق الفائقة الطبيعة من الشعر

ان بودلير كله يكمن في هـذا المقطع فنحن

نجد فيه نفوره من الطبيعة الخصبة اكثر مما ينبغي وحبه لعدم الارتواء وللذائذ المستثارة وصبوته الى الماوراء لكن ينبغي الا ننخدع بذلك كما فعل البعض عندما تحدث عن افلاطونية بودلير او عن صوفيته ، وكأنه اراد ان يتحرر من ارتباطاته الجسدية ليستطيع على طريقة الفيلسوف الموصوف في المأدبة »[1] ان يقف وجهاً لوجه ازاء المثل الصافية او الجمال المطلق والواقع اننا لا نجد لديه اي أثر من ذلك الجهد الذي عرف عن الصوفيين والذي يترافق بزهد كامل عن الارض وعن الفردية واذا كان الحنين الى الماوراء وعدم الرضى وتجاوز ما هو واقعي تتجلى في كل من آثاره فإنه يندب نفسه في قلب هذا الواقع بالذات ان التجاوز بالنسبة اليه يدل على نفسه ويرتسم بدءاً من الاشياء التي تحيط به بل لا بد ان تكون هنا بالضرورة حتى تتاح له لذة تجاوزها انه ليشمئز من الصعود الى اعالي السماء ، مخلفاً تحته خيرات الارض فهو انما هو بحاجة الى هذه الخيرات نفسها كي يحتقرها ، والى السجن الارض كي يشعر دوماً بأنه موشك على الافلات منه : وبكلمة واحدة ، إن عدم الرضى ليس صبوة حقيقة الى الماوراء بل طريقة معينة في إنارة العالم إن الشيء الوحيد المهم في نظر بودلير ، كما في نظر الابيقوري هو العالم لكن طريقتهما في امتلاكه ليست

١ — يقصد كتاب » المأدبة لأفلاطون (هـ. م)

واحدة ففي النص الذي استشهدنا به يبحث بودلير عن الجمال السامي ويلمحه من خلال الشعر وهذا هو المهم على وجه التحديد هذه الحركة التي تخترق القصيدة كالسيف والتي تطل منها على الماوراء والتي تتبخر آنذاك وبعد ان تكون قد ادت مهمتها في الفراغ وهذه في الحقيقة حيلة لمنح الاشياء روحاً والمقطع المشهور في صواريخ » يكشف لنا عن هذه الحيلة في تعريفه للجمال بأنه شيء ما مبهم قليلاً يفسح مجال الحرية « للتخمين والجمال بالاصل عند بودلير خاص دوماً او ان ما يسكره بالاحرى هو مزج معين بين الفردي والابدية بحيث تتكشف الابدية من خلال الفردي يقول الجمال مكون من عنصر ابدي ، خالد لا يتغير ، يصعب للغاية تحديد كميته ، ومن عنصر نسبي مشروط بالظروف يسمى عادة بالعصر والموضة والاخلاق والهوى »

لكن اذا ما تساءلنا بدقة اكبر عمّا يمكن ان تكونه الدلالات التي يلمحها المتكسع او آكل الحشيش او الشاعر عبر الاشياء فإننا سنجد انفسنا مرغمين على التسليم بأنها لا تشبه المثل الافلاطونية او الاشكال الارسطوطالية ولقد امكن بلا ريب لبودلير ان يكتب: «إن الحماسة التي يبديها المرء نحو اشياء اخرى غير التجريدات ، هي علامة الضعف والمرض » . لكننا في الواقع لا نراه يهتم في اي موضع

بأن يحدد ويثبت ، بدءاً من طبيعة خاصة ، السمات الاساسية والمجردة التي تميزها ان الماهيات لا تأسر اهتمامه، وديالكتيك سقراط غريب عنه وجلي ان ما يرنو اليه من خلال كل امرأة تمر سواء أكانت دوروتي ام مالاباريز ليس الانوثة اي مجموع الصفات المميزة لجنسها وهو يستطيع ان يقول كما قال ذلك الخصم اليوناني للأكاديمية اني ارى الحصان لكن لا الطبيعة الحصانية ويكفي ان نعيد قراءة « ازهار الشر لنفهم أن ما يطلبه بودلير من الدلالة ليس ان تتجاوز الموضوع الدال كما يتجاوز العام المثال الخاص الفردي الذي يستند اليه بل ان تكون اخف ثقلاً حتى تطير الى ما وراء كائن اكثف واثقل كما يفلت الهواء من الارض الثقيلة ذات المسام وكما تفلت على الاخص الروح من الجسم

هناك عطور قوية تنفذ الى مسام
كل مادة ولكأنها تخترق الزجاج ١

إن هذا الشعور بتسرب المادة الغازية الى اصلب الاجسام ، تلك المادة التي تستمد روحيتها من مرونتها هو شعور اساسي لديه ان ذلك الزجاج السابح في الرائحة ، الجلي ،

زجاجة العطر .

المصقول ، المفتقد الى الذاكرة ، لكن المسكون بتبدل دائم والمخترق ببخار   هو اوضح رمز عن العلاقة التي تتوطد بالنسبة اليه بين الشيء الدال والدلالة   والحال انه لمن الجلي ان الشيء ومعناه فريدان كلاهما   ان شفافية المعنى الزجاجية هذه وطابعه الضبابي النهائي يدلاننا على الطريق فالمعنى هـــو الماضي   ان الشيء يكون دالاً بالنسبة الى بودلير حين يكون منفتح المسام على ماضٍ ما   ومحرضاً للفكر على تجاوزه نحو ذكرى ما   عطور   ارواح افكار   اسرار   هذه وغيرها كلها كلمات تشير الى عالم الذاكرة   ويقول شارل دي   مصيباً   لا شيء عميقاً في نظر بودلير غير الماضي   فهو الذي يعطي البعد الثالث لكل شيء يوصل   يؤثر   وهكذا وكما لاحظنا خلطه بين الابدي والماضي   نستطيع ان نلاحظ الآن خلطه بين الماضي والروحي   وآثار بودلير ، شأنها شأن آثار برغسون ، يمكن ان تسمى   المادة والذاكرة   وذلك ان الماضي العالمي — لا ماضي وعيه وحده — يقدم نفسه على انــه كيفية في الكينونة متجاوبة كل التجاوب مع امانيه   انه كائن   لأنه موضوع خالص نهائي للتأمل السلبي   لكنه في الوقت نفسه غائب   بعيد عن المتناول   ذابل ذبولاً رقيقاً   انه يملك تلك الكينونة الضبابية التي يسميها بودلير روحاً والتي هي الكينونة الوحيدة التي يستطيع شاعرنا ان ينسجم معها . ان التأملات في المتع المنصرمة تترافق بتلك

الاستثارة بذلك التهييج للاعصاب ، وبعدم الارتــواء العزيز عليه الى أبعد الحدود انهــا بعيدة ابعد من الهند او الصين » ومع ذلك لا شيء اقرب منها انها الكينونة الكامنة ما وراء الكينونة انها هي « سر النساء العجائز اللاتي تألمن وسر اولئك الرجال القائمين المكبوتة مطامحهم كبتاً مظلماً » واخيراً سر الشيطان ، الوحيد بين الملائكة الذي يتمتع بذاكرة شخصية. وبودلير يعترف اكثر من مرة بأن المثل الاعلى في الكينونة عنده هو موضوع موجود في الحاضر ومتمتع في الوقت نفسه بكل صفات الذكرى. انه يتمنى في « الفن الرومانتيكي » ان يعيد الماضي نور حياته وحركتها وان يتحول الى حاضر مع احتفاظه بلسعة الشبح [١] »

وفي ازهار الشر

يا لها من فتنة عميقة سحرية يسكرنا

بها في الحاضر الماضي المتجدد [٢]

وبالفعل إن هذا الاتحاد الموضوعي بين الكينونة والوجود يمثل في نظره الاتحاد الذي تحاول اشعاره ، كما رأينا ، ان تحققه

هذه هي الملامح الكبرى لصورة بودلير لكن الوصف

---

١ — رسام الحياة الحديثة

٢ — ازهار الشر شبح

الذي حاولناه يشكو من نقص اساسي بالنسبة الى الصورة وهو انه متتابع في حين انها متواقتة ان حدس وجه من الوجوه مسلك من المسالك هو وحده الذي يستطيع ان يجعلنا نشعر بأن الملامح التي عددناها في هذه الدراسة واحداً تلو الآخر متلاحمة في الواقع في تركيب غير قابل للانحلال يعبر فيه كل منها عن نفسه وعن سائر الملامح في آن واحـــد وكان يكفينا ان نرى بودلير يحيا ولو للحظة حتى تنتظم ملاحظاتنا المتشتتة في معرفـــة كلية موحدة ان الادراك المباشر يترافق بالفعل بفهم مبهم وعلى حد تعبير هيدجر ما قبل اونطولوجي » نحتاج في غالب الاحيان الى سنوات لنوضحه ويشتمل عـــلى صفات الموضوع الرئيسية وقد التقطت من خلال لاتمايز موحد وامام غياب هذا الفهم المباشر ، نستطيع على الاقل ان نستنتج ان نشير الى الترابط الوثيق بين المسالك والانفعالات البودليرية كافة وان نلح على الطريقة التي « تنتقل » بها كل سمة من السمات عن طريق ديالكتيك فريد الى السمات الاخرى او تكشف عنها او تناديها لتكملها ان هذا التوتر اللامجدي القاحل المبالغ فيه ، الذي يشكل مناخه الداخلي والذي كان يدل عـــلى نفسه بالنسبة الى الذين عرفوه في الجفاف القاطع لصوته في العصبية الباردة لحركاته هو بلا ريب نتيجة الكراهية التي يشعر بها تجاه الطبيعة في داخله وخارجه ، ويبدو

كمجهود يبذله لينسحب من اللعبة وليعلن عدم تضامنه ونحن لا نستطيع ان نشبه ذلك التوتر إلا بالموقف المزدري القلق المتصلب لسجين في كهف مغمور بالماء ينظر الى الماء يصعد حول جسمه ويرمي برأسه الى الخلف حتى يظل على الاقل هذا الجزء النبيل من ذاته مركز لفكر والنظر فوق الموج الموحل اطول مدة ممكنة لكن هذا الموقف الرواقي يحقق في الوقت نفسه الازدواج الذي ينشده بودلير على جميع المستويات . انه يلجم نفسه يردعها يحكم عليها وانه شاهد نفسه وجلادها والسكين التي تنقب في الجرح والازميل الذي ينحت الرخام انه يتوتر ويشتغل بنفسه حتى لا يكون ابداً معطى في نظر نفسه وحتى يستطيع ان يأخذ على عاتقه في كل لحظة ، مسؤولية ما هو كائن عليه ويصعب علينا من هـــذه الزاوية ان نميز التوتر الذي يفرضه على نفسه من الكوميديا التي يرغم عليها ذاته ان هذا التوتر الذي هو عذاب او صحو يبدو اذا ما نظرنا من زاوية اخرى جوهر الداندية وخلاصة الرواقية القائمة على قهر الذات وهو في الوقت نفسه اشمئزاز من الحياة وخوف دائم من التوسخ والتورط والرقابة التي يمارسها هذا التوتر على التلقائية تعادل التعقيم المتعمد ان بودلير بكبته اندفاعاته قاطبة وبجثومه دفعة واحدة ونهائية على الصعيد التأملي ، قد اختار الانتحار الرمزي انه يقتل نفسه بالتقسيط .

كما ان ذلك التوتر يخلق في الوقت نفسه جو « الشر » البودليري فالجريمة عنده ترسم وتنفذ عن سابق تصميم ، وبالاكراه تقريباً ان الشر لا يعني البتة التخلي بل هو خير مضاد فيه كل صفات الخير دونما اي تغيير غير التغيير في الاسم وما دام الخير جهداً ، ممارسة ، سيطرة على الذات فإننا نجد في الشر جميع هذه الصفات وعلى هذا فإن « التوتر » البودليري يشعر بأنه ملعون ويريد نفسه ملعوناً كذلك فان حبه للذائذ المكبوحة الذي فضحناه عنده يعبر عن مقته للتخلي ومن هنا يتحد ببروده بعقمه بافتقاره الجذري الى الاحسان والكرم واخيراً بالتوتر نفسه الذي وصفناه لتونا ان هدفه ان يجد نفسه سيد ذاته في ملذاته انه لحاجة الى الشعور بلجام يشده الى الخلف في الوقت الذي سيستسلم فيه للمتعة ومن هـــذه الزاوية فإن الاوهام التي يتخيلها في لحظة العمل الجنسي وقضاته وامه والنساء الجميلات الباردات اللاتي يراقبنه انما القصد منها ان تنقذه في اللحظة التي سيهوي فيها في لجة الاحساس الخالص وان عجزه بالذات ناتج على ما يبدو من الخوف من ان يتمتع اكثر مما ينبغي لكنه اذا كان من جهة اخرى يكبح جماح نفسه في ملذاته فهذا لأنه اختار وهو اللامرتوي من حيث المبدأ ، ان يجد لذته في اللاارتواء بدلاً من ان يجدها في الامتلاك . ان الغاية التي ينشدها ونحن جميعاً نعرف

ذلك هي تلك الصورة الغريبة عن نفسه والتي هي اتحاد الوجود والكينونة اتحاداً غير قابل للانحلال والحال ان هذا الاتحاد بعيد عن متناول الانسان وهو يعرف ذلك في اعماق نفسه يخيل اليه انه يبلغه ويلمسه لكنه يتبخر حين يريد ان يعانقه انــه سيريد اذن ان يقنع نفسه كي يخفي عنها فشله بأن اللمس الخفيف البعيد هو الامتلاك الحقيقي ولهذا سيدخل تعديلاً معمماً على جميع رغباته كما يبحث عن هذا التماس البعيد المثير للاعصاب في جميع الميادين ليثبت لنفسه انه الامتلاك الوحيد المرغوب وهكذا يقرر ان يوحد بين ارواء الرغبة وبين استثارتها دونما إشباع وهذا يتأتى ايضاً من انه لم تكن له قط من غاية غير نفسه والحال ان الانسان ، في اللذة العادية الطبيعية يتمتع بالموضوع وينسى نفسه في حين ان بودلير في هذه الدغدغة المثيرة للاعصاب انما يتمتع بالرغبة اي بذاته ومن جديد ينسب الى تلك الحياة الزائفة التي جعل منها حياته ، والى تلك الاستثارة للاعصاب التي لا طائل تحتها ، معنى آخر انها تمثل عدم الرضى الجذري للإلـه الساقط ومن هنا فإنه يستخدمها كسلاح لإرواء غليل أحقاده فهو سيكشف نفسه لأمه من خلال أوجاعه ، لكن هذه الاوجاع ، اذا ما نظرنا اليها عن قرب ، تشكل شيئاً واحداً وملذاته فأن يلعن الانسان السماء لأنه غير راضٍ او ان يختار عدم الرضى كمعنى عميق للذة ،

فهذا شيء واحد   والالتباس يتأتى فقط من تبدل خفيف في الموقف بالنسبة الى الواقعة الاولى   وهذا الالم الذي يرعاه بعناية يخدمه ايضاً ، بصفة عقاب ذاتي ، حين يريد ان يأخذ بثأره من الخير   عن طريق نوع من التجاوز المتحجر ، في الوقت نفسه الذي يسمح لـــه فيه بتوكيد غيرته نهائياً   لكن ليس هناك من جديد ولا من فرق بين توكيده المتطرف للذات وبين نفيه النهائي للذات   ذلك انه حين ينكر نفسه إنكاراً تاماً   فإنه يفكر بالانتحار والحال ان الانتحار عنده ليس طموحاً الى العدم المطلق وحين يتخيل انه سيحذف نفسه   يريد ان يبيد في نفسه الطبيعة التي يوحدها بالحاضر وبضباب الوعي   انه يطلب من فكرة الانتحار تلك المساعدة الطفيفة   تلك النقرة التي ستسمح له بأن يعتبر حياته نهائية مكتملة لا رجوع فيها ، اي كقدر ازلي   او اذا شئنا كماض مغلق   وهو يرى على الاخص في الفعل الذي يضع حداً لأيامه استعادة نهائية لكينونته   انه هو الذي سينفذ العملية ، انه هو الذي سيوقف حياته فيحولها الى ماهية معطاة ابداً ومخلوقة ابداً من قبله . وبذلك سيتحرر من ذلك الشعور المرهق ، الشعور بأنه زائد على العالم   لكن لا شك في انه ينبغي أن يبقى على قيد الحياة   حتى يتمتع بنتائج انتحاره   ولهذا اختار بودلير ان يبني نفسه على اساس انه ميت بقي على قيد الحياة   واذا كان لم ينتحر دفعة واحدة ، فقد تدبر امره على الاقل

حتى يكون كل فعل من افعالــه المعادل الرمزي لميتة لا يستطيع ان يعرض نفسه لها البرودة العجز العقم ، فقدان الكرم رفض الإفادة الخطيئة هذه هي من جديد معادلات الانتحار وبالفعل ان بودلير يفهم توكيد الذات على انه طرح لهـــا كماهية خامدة الحركة خالصة وإنكار الذات على انه رغبة في ألا يكون مرة واحدة ونهائية إلا سلسلة ذكرياته التي لا رجوع عنها والابداع الشعري الذي فضله على جميع انواع العمل ، يقترب عنده من الانتحار الذي لم يكف عن اجترار فهذا الابداع يغريه اولاً لأنه يسمح له بأن يمارس حريته دونما خطر لكن على الاخص لأن الابداع يبتعد عن جميع اشكال العطاء الذي ينفر منه كل النفور فهو عندما يكتب قصيدة يعتقد انه لا يعطي البشر شيئاً او لا يسلمهم على الاقل إلا موضوعاً عديم الفائدة انه لا يفيد انه يظل شحيحاً منغلقا على ذاته انــه لا يتورط في إبداعه وفي الوقت نفسه يرغمه إكراه الوزن والبيت على ان يتابع على هذا الصعيد قهر الذات الذي يمارسه عن طريق تسريح الشعر والداندية انــه ينظم مشاعره في شكل معين كما نظم جسده او مواقفه في شكل معين وإن لفي القصائد البودليرية نزعة داندية واخيراً فإن الموضوع الذي ينتجه ليس الا صورة عن ذاته ، ليس إلا إحياء لذاكرته في الحاضر ظاهر من التركيب

بين الكينونة والوجود وحين يحاول ان يمتلكه فإنه لا يتوصل الى ذلك تماماً ويظل غير مرتوٍ نظراً الى انه يكون ملتزماً به الى اكثر من النصف ومن هنا فإن موضوع الرغبة يقترن بالرغبة نفسها ليشكلا في النهاية تلك الكلية المتصلبة الداعرة غير الراضية التي ليست هي شيئاً آخر غير بودلير نفسه وكما نرى فإن نفي الذات تمر في توكيد الذات كما في الديالكتيك الهيغلي والانتحار يصبح وسيلة لتخليد النفس ويكون للألم الألم البودليري المشهور نفس بنية الصميمية التي للذة ويقترن الابداع الشعري بالعقم وجميع هذه الاشكال [illegible]ارضة وجميع هذه المواقف اليومية تؤسس بعضها البعض وتظهر وتتبخر وتعاود الظهور في الوقت الذي يخيل فيه للمرء انه ابعد ما يكون عنها انها ليست إلا تموجات للحن اساسي بدائي تردده ابداً بإيقاعات متنوعة.

ونحن نعرف هذا اللحن ولم يغب عن انظارنا لحظة واحدة انه الاختيار المبدئي الذي اختار به بودلير نفسه. لقد اختار ان يوجد حيال نفسه كما هو كائن حيال الآخرين، واراد تبدو له حريته كـ « طبيعة » ، وان تبدو «الطبيعة» التي يكتشفها الآخرون فيه كانبثاق لحريته بالذات وبدءاً من هنا يصبح كل شيء واضحاً فتلك الحياة البائسة التي كانت تبدو لنا وكأنها تسير على غير هدى ، نفهم

الآن انه نسجها بعناية انه هو الذي عمل على ان تكون كحياة انسان كان يفترض فيه ان يموت لكنه بقي على قيد الحياة وهو الذي اثقلها من البداية بألف عبء الزنجية الديون الزهري ، مجلس العائلة الذي سيحرجه حتى النهاية وسيرغمه حتى النهاية على التقدم نحو المستقبل ورأسه ملتفت الى الوراء ، وهو الذي اخترع هاتيك النساء الجميلات اللاتي اخترقن اعوام سأمه ماري دوبران السيدة ساباتييه وهو الذي حــد عن عمد من جغرافية وجوده عندما قرر ان يجر ذيول بؤسه في مدين كبيرة وعندما رفض كل سفر حقيقي ليستطيع ان يتابع في غرفته هروبه الخيالي على وجه افضل ، وهو الذي استبدل الأسفار بتغيير مكان الاقامة مقلداً الحرب بالتبديل الدائم للمكان الذي يقطن فيه وهو الذي لم يقبل بالرغم من جرحه المميت ، بأن يغادر باريس إلا الى مدينة اخرى هي كاريكاتور لها ، وهو الذي اراد ايضاً فشله الادبي النصفي ، وتلك العزلة اللامعة البائسة في عالم الآداب وفي تلك الحياة المغلقة الضيقة التي عاشها ، يبدو لنا ان اي حادث ، اي تدخل للصدفة كان يمكن ان يوفر جواً طليقاً وراحة للهوتونتيموروميتوس لكننا عبثاً نبحث عن ظرف لم يكن مسؤولاً عنه مسؤولية كاملة صاحية ان كل حدث يرجع الينا انعكاس تلك الكلية غير القابلة للانحلال التي

١ — اي الرجل الذي يعذب نفسه (هـ م)

كانها من اول ايامه الى آخرها لقد رفض التجربة ولم يأت شيء من الخارج ليغيره ولم يتعلم شيئاً ولقد كان لموت الجنرال اوبيك وحده بعض التأثير الضئيل اصلاً على علاقاته بأمه وفيا عدا ذلك لا يعدو تاريخه ان يكون تفسخاً بطيئاً للغاية ومؤلماً للغاية وكما كان في العشرين من عمره كذلك نجده عشية موته لكن اشد كآبة واشد عصبية واشد حدة اما موهبته وذكاؤه المدهش فلم تبق منهما الا ذكريات وهذا هو بلا ريب تفرده تمايزه الذي سعى وراءه حتى موته والذي كان يتجلى إلا لأنظار الآخرين كان تجربة في إناء مخلق شيئاً شبيهاً بـ « هومونكولوس » فاوست الثاني، ولقد سمحت لــه ظروف التجربة شبه المجردة بأن يقدم شهادة ساطعة عن هذه الحقيقة ألا وهي ان الاختيار الحر الذي يختار به الانسان نفسه يتحد اتحاداً مطلقاً بما يسمى مصيره

١ – اسم المخلوق الذي جاء في المسرحية المذكورة انه خلق في المختبر، بتجربة كيماوية، لا بطريق التناسل البشري (هـ م)